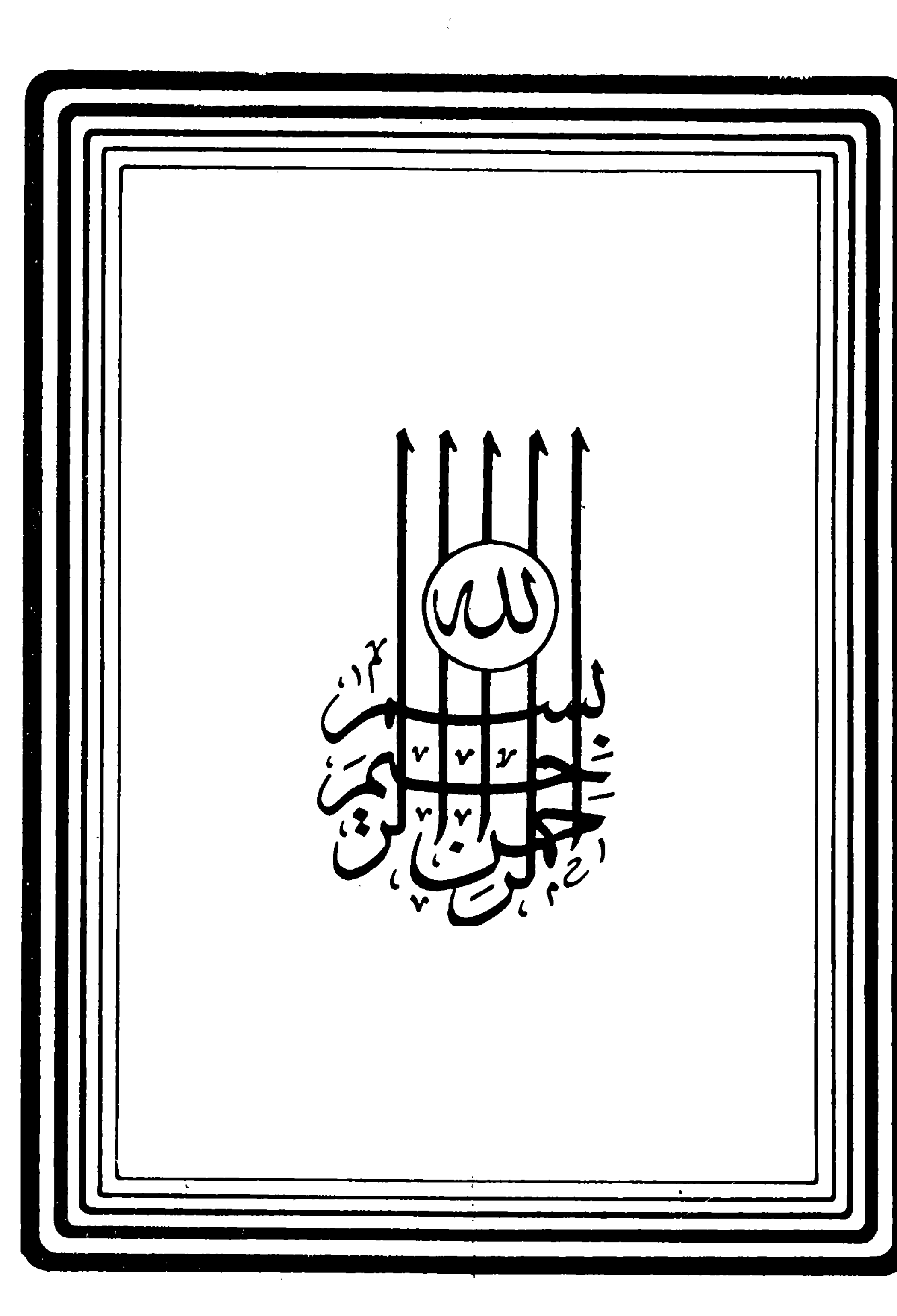
أيام في النيجر

بقلم

محمد بن ناصر العبودي


بسم الله الرحمن الرحيم

أيام في النيجر

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي: أحد الأدباء السعوديين الحائزين على (ميدالية) الإستحقاق في الأدب، ولد في مدينة بريدة عاصمة منطقة القصيم عام ١٩٣٠ م. وتعلم في مدارسها وتلقى العلم على مشايخها ثم على مشايخ آخرين في المملكة العربية السعودية.

شغل وظائف رئيسية منها مدير المعهد العلمي في بريدة من عام ١٣٧٣ هـ إلى عام ١٣٨٠ هـ ثم نقل إلى وظيفة الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما افتتحت وكان من الموظفين المؤسسين للجامعة. وذلك لمدة ثلاث عشرة سنة.

عين بعدها وكيلاً للجامعة الإسلامية لمدة سنة واحدة.

ثم نقل إلى وظيفة (الأمين العام للدعوة الإسلامية) برتبة وكيل وزارة (المرتبة الخامسة عشرة) وبقي فيها ثماني سنوات.

ثم (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي) الحالية.

له بحوث عديدة واشترك في عشرات المؤتمرات الإسلامية والأدبية.

اولاً ـ مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ معجم بلاد القصيم: ستة مجلدات، نشر دار اليمامة للطبع والنشر.

٢ ـ الأمثال العامية في نجد: خمسة مجلدات، ساعدت دارة الملك عبد العزيز في نفقات طباعته.

٣ ـ في إفريقية الخضراء: نشر دار الثقافة في بيروت.

٤ ـ صلة الحديث عن إفريقية. نشر دار العلوم في الرياض.

٥ ـ كتاب الثقلاء، نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (سلسلة الكتاب العربي السعودي).

٦ ـ كتاب شهر في غرب إفريقية، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٧ ـ كتاب رحلات في أمريكا الوسطى، طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٨ ـ كتاب جولة في جزائر البحر الزنجي طبع المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

٩ ـ شهر إطلالة على نهاية العالم الجنوبي ـ نشر النادي الأدبي في الرياض.

١٠ ـ «مأثورات شعبية، وسلسلة الكتاب السعودي.

١١ ـ «سياحة في كشمير» طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٢ ـ «رحلة إلى جزر مالديف» إحدى عجائب الدنيا. . . نشر دار العلوم في الرياض.

١٣ ـ «رحلة إلى سيلان» نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

١٤ ـ «في غرب البرازيل» طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

١٥ ـ «في بلاد المسلمين المنسيين» بخارى وما وراء النهر ـ طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٦ ـ «بقية الحديث عن إفريقية»، طبع مطابع الفرزدق التجارية.

١٧ ـ «جولة في جزائر البحر الكاريبي»، المطابع الأهلية للأوفست في الرياض.

١٨ ـ «جولة في جزائر جنوب المحيط الهادي»، مطابع الفرزدق التجارية.

١٩ ـ «جولة إلى أقصى الجنوب الأمريكي»، مطابع الفرزدق التجارية.

٢٠ ـ «مشاهدات في بلاد العنصريين» نشر نادي القصيم الأدبي في بريدة.

٢١ ـ «نفحات من السكينة القرآنية»، نشر دار العلوم ـ الرياض.

٢٢ ـ «على ضفاف الأمازون»، نشر النادي الأدبي في أبها.

٢٣ ـ «سوانح أدبية»، طبعمطابع الفرزدق التجارية.

٢٤ ـ «أخبار أبي العيناء اليمامي» نشر دار اليمامة للطبع والنشر بالرياض.

٢٥ ـ «داخل أسوار الصين» مجلدان: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٦ ـ «مع المسلمين البولنديين» مجلد: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٧ ـ «بلاد الداغستان» مجلد: طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٨ ـ «جمهورية أذربيجان»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٢٩ ـ «مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين»، نشر النادي الأدبي في الرياض.

٣٠ ـ «بين الأرغواي والباراغواي» طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣١ ـ «صورة ثقيلة»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٢ ـ «في نيبال، بلاد الجبال» طبع مطابع نجد.

٣٣ ـ «يزارة لسلطنة بروناي الإسلامية» مطابع الرياض الأهلية للأوفست.

٣٤ ـ «على قمم جبال الإنديز» طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٥ ـ «في أعماق الصين الشعبية» نشرته مجلة النهل التي تصدر في جدة.

٣٦ ـ «بورما: الخبر والعيان» طبع في بيروت.

٣٧ ـ «مقال عن بلاد البنغال» طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٨ ـ «ذكريات من يوغسلافيا» طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٣٩ ـ الرحلة الروسية، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤٠ ـ «كنت في بلغاريا»، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤١ ـ «كنت في ألبانيا» طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٤١ ـ أيام في النيجر (طبع في بيروت).

٤٢ ـ نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية، طبع في بيروت.

٤٣ ـ ذكرياتي في إفريقية ـ محاضرة ـ نشرتها رابطة العالم الإسلامي.



بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

براءة

تكريم الأدباء السعوديين

المعارف والرئيس الأعلى لجامعة الملك عبد العزيز ـ بناء على الصلاحيات المخولة له وبناء على المادة

والعشرين من نظام الجامعة وبعد الاطلاع على محضر مجلس الجامعة الثالث المنعقد بتاريخ ٥ / ٣ / ١٣٩٤ والمبنى على

اللجنة الفنية المنبثقة عن المؤتمر الأول للأدباء السعوديين لتكريم الأدباء.

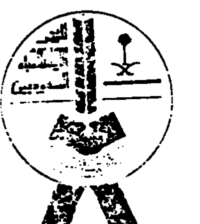
السيد/ محمد بن ناصر العبودي ميدالية الاستحقاق تكريماً لجهوده وإنتاجه الفكري

والله ولي التوفيق.

الكرمة في ٥ / ٣ / ١٣٩٤هـ

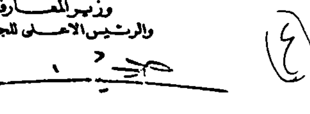
٢٨/ ٣ /١٩٧٤م

مدير الجامعة



وزير المعارف

والرئيس الأعلى للجامعة





المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ـ.

أما بعد:

فإن النيجر بلاد مسلمة خالصة للإسلام وأهلها كانوا من الأخوة السودانيين الذين كان أسلافنا من المؤرخين المسلمين يذكرونهم فيشكرونهم، بل يكثرون من ذلك ويسمونهم بالسودان قبل أن يكتسب السودان العربي الذي عاصمته الخرطوم ويصح أن نسميه بالسودان الشرقي هذه التسمية، بل قبل أن ينتزع شرفها من هؤلاء الإخوة المسلمين سكان السودان التاريخي القديم الذي يصح أن نسميه بالسودان الغربي ونقول قبل أن ينتزع شرفها ونحن نصر على ذلك لأن أخبار السودانيين الغربيين وتاريخهم القديم فيه من الأمجاد ما تقصر عن التطلع إليه أعناق شعوب كثير من البلاد وناهيك ببلاد وصلت بالإدارة تحت ظل الشريعة الإسلامية في القرون الوسطية إلى ما لم تصل إليه، بل ما لم تقارب الوصول إليه كل أقطار أوروبا في ذلك الوقت حاشا بلاد الأندلس: بلاد المسلمين.

كما وصلت بالأمن في بلادها في تلك القرون التي يسميها الأوروبيون بالقرون المظلمة وهي بحق مظلمة لهم ولكنها مضيئة لنا إلى درجة من الأمن في مدن السودان وبراريه ما لم تستطع الأقطار الأوروبية

ومعها الولايات المتحدة الأميركية أكبر قوة مادية في العالم الآن أن تصل إليه في الوقت الحاضر.

وقد يحتاج الأمر إلى شاهد فنستشهد بقول ابن بطوطة رغم عدم أخذنا بالإستشهاد بالنصوص في معرض الحديث عن المشاهدات والإنطباعات في هذه البلاد وذلك لكي نمهد لصحة ما قلناه.

قال ابن بطوطة فيهم: فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه.

ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب.

ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه.

بقيت كلمة واجبة القول هنا وهو أن مركز السودانيين في القديم كان في (غانة) ثم في مملكة (مالي). وهنا اتسع نفوذ هذه المملكة السودانية، وبعد صيتها، وصارت مقصداً لمن يريدون الثراء، أو البيع والشراء، وإن كان ذلك البيع والشراء يكون أحياناً في سلع غريبة كالملح والرقيق أو الأصداف، وأحياناً في سلع شهيرة ثمينة كالذهب والعاج إلا أنها كانت تشمل النيجر وأحياناً تتعداه إلى بلاد الكانم والبرنو التي هي خارجة عن النيجر وداخلة في نيجيريا وتشاد في الوقت الحاضر، حتى أصبح مركز إحدى الممالك السودانية قريباً جداً مما يعرف بجمهورية النيجر الآن وهي مملكة السنغي، التي كانت عاصمتها (قاو) أو (كوكو) كما كان أسلافنا العرب يسمونها وهم على حق في ذلك إذ كانت تسمى (قاو قاو) بالتكرير وكانوا يكتبون القاف المضرية التي تعرف الآن بالجيم المصرية كافا فجاء المتأخرون وحذفوا إحدى الكلمتين المكررتين واكتفوا بواحدة.

و (قاو) هذه واقعة الآن في شرقي جمهورية مالي ولكنها لا تبعد عن

حدود جمهورية النيجر إلا قليلاً جهة الغرب. ولذلك كانت النيجر مسرحاً لوقائع كثيرة من أحداث ذلك الحكم وبقيت على ذلك آثار وشواهد منها مساجد بناها أحد (اسكيات) السنغي. ومن أشهرها جامع أغاديس في قلب الصحراء الإفريقية. وسوف يأتي الحديث عنه في هذا الكتاب.

وقد سافرت إلى النيجر مرتين إحداهما كانت في آخر ذي الحجة عام ١٤٠٢ هـ والأخرى في عام ١٤٠٥ هـ وسوف أقص عليك قصة الأيام التي قضيتها في النيجر في المرتين كلتيهما راجياً أن تستطيع أن تكون من خلال ذلك فكرة واضحة عن هذا البلد المسلم الشقيق العريق في الإسلام.

والله الموفق

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



أرقام حول النيجر
مستقاة من بيانات حكومية نيجرية

السكان: ٥,٦٨ مليون نسمة (معدل الزيادة ٢,٨ بالمئة سنوياً).

الكثافة السكانية: ٤ مواطنين في الكيلومتر المربع.

اليد العاملة الزراعية تشكل ٨٩ بالمئة من السكان العاملين.

المدن الرئيسية: العاصمة نيامي (٥٤٣٦٠٠ نسمة)، زندر (٩٤٦٠٠ نسمة) مرادي (٧٨٦٠٠ نسمة) طحوه (٥٨٠٠٠ نسمة) أغادس (٤٧٠٠٠ نسمة).

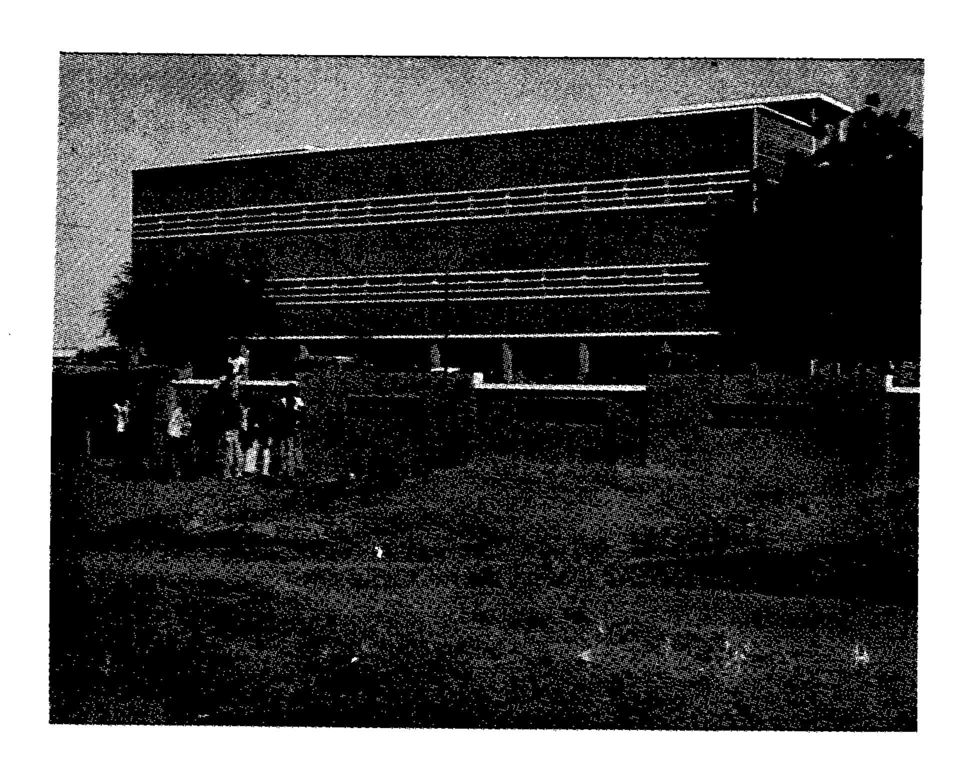
إجمالي الناتج القومي: (١٩٧٨) ٣٨٠ مليار فرنك إفريقي (تقدير ١٩٧٩).

إجمالي الناتج القومي للفرد الواحد: ١١٠٠ فرنك فرنسي (تقدير) معدل الزيادة: ١,٥ بالمئة.

استهلاك الطاقة: (١٩٧٨) ٣٨ كلغ من معادن الفحم للمواطن الواحد.

العربات ذات الإستعمال التجاري: (١٩٧٨) ٢٠٨ لكل ١٠٠٠ مواطن.

معدل التسجيل في المدارس: ٢٢ بالمئة للأولاد الذين هم في سن الدراسة الإبتدائية، ٣ بالمئة للأولاد الذي هم في سن الدراسة الثانوية.



المدرسة الإعدادية العربية في نيامي

الموازنة: (١٩٨٢) ٩٣,٩٥ مليار فرنك إفريقي (+ ١٦,٤٠ بالمئة عن عام ١٩٨١) منها ٢٦ مليار لصندوق الإستثمار الوطني.

الخطة: ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣: أهداف ثلاثة:

ـ الاكتفاء الذاتي الغذائي ـ إنشاء «مجتمع التنمية» ـ الاستقلال الإقتصادي

الإستثمار خلال خمس سنوات: ٧٢٧,٤٢ مليار فرنك إفريقي (منها ٥١,٦٤ بالمئة للقطاع الصناعي و١٦ بالمئة للقطاع الريفي).

والنيجر بلاد واسعة تشتمل على صحارى قاحلة وأخرى ذات واحات

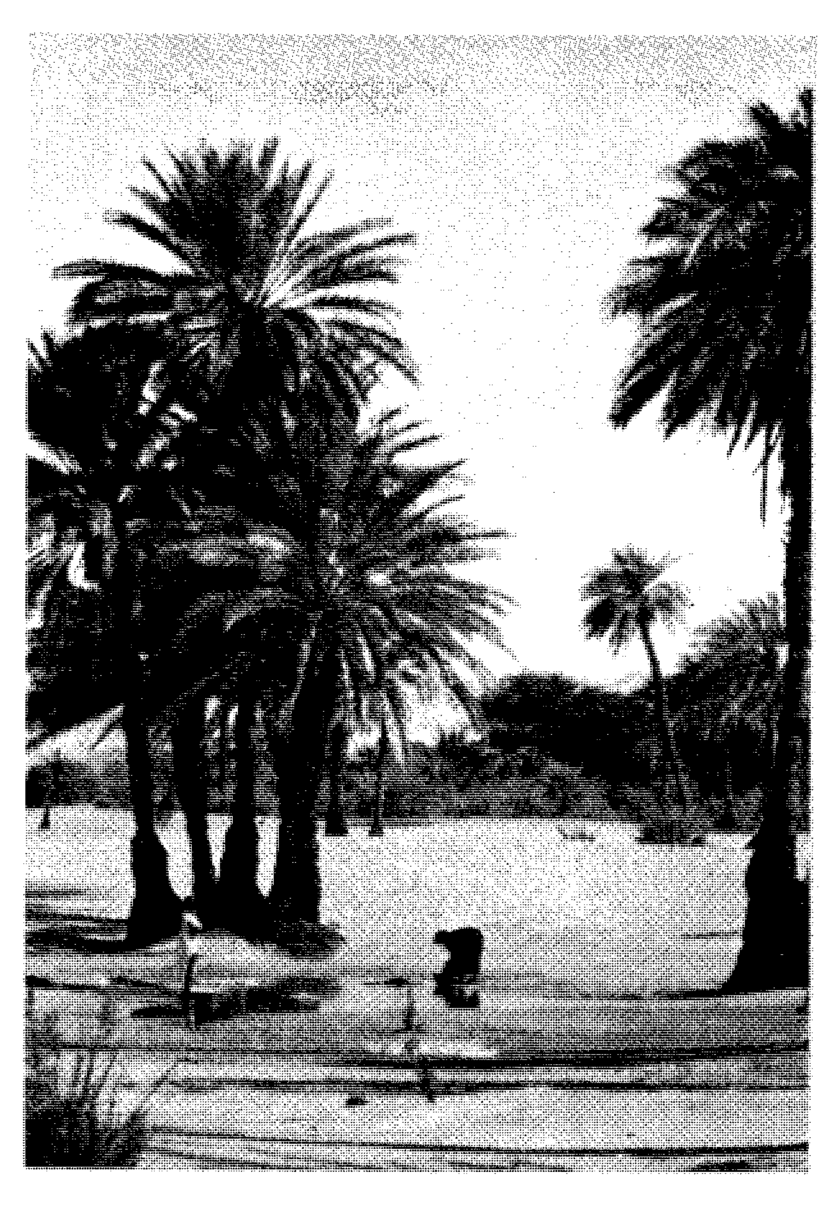
قليلة، ومن أكبر صحاريها وأوسعها صحراء (تنيرا) وصحراء (عير). وتظهر سعة أرض النيجر بإلقاء نظرة عاجلة عليها فمن مدينة تيرا على حدود ڤولتا العليا وحتى نجو يجمي الواقعة قرب حدود تشاد تبلغ المسافة ١٣٥٠ كم. ومن جايا المجاورة لداهومي حتى الصحراء وحدود ليبيا تبلغ المسافة ٢٠٠٠ كم.

تقع في الشمال مساحات شاسعة من المناطق الصحراوية. وفي الشمال أيضاً توجد هضبة (العير) التي تزيد مساحتها على مساحة سويسرا. حيث المياه موجودة في الآبار والمراعي خصبة والمدن غاية في الغرابة، فتلك المنطقة موطن الطوارق مما يعتبر بحق متعة لهواة السياحة.

كما تقع في الجنوب أرض خصبة جداً يسكنها أغلبية أهالي النيجر وفيها المدن الكبرى المحاطة بآلاف القرى. ومن هذه المدن دوسو، دونجوتشي، ماراوا، مرادي، تيسوا، زندر. وتزرع بهذه المنطقة محاصيل مثل الذرة البيضاء والفول السوداني والقمح والذرة والشعير والقطن، كما توجد المراعي الخصبة حيث ترعى الأبقار والأغنام. مما يدل على رخاء تلك المنطقة من النيجر. أما التجارة فمزدهرة جداً خصوصاً في كل من مرادي وزندر.

شعب النيجر كله شعب مسلم لا تكاد تجد فيه لغير المسلمين شيئاً إلا ما لا يستحق الذكر ومع ذلك فإنه ليس مؤلفاً من عنصر واحد، وهذا أمر طبيعي، فإنه لما كانت النيجر حلقة وصل بين إفريقية الشمالية وبلدان جنوب الصحراء، استقبلت خلال تاريخها شعوباً وقبائل مختلفة، بينها الأبيض والأسود، بقيت أصولها مجهولة في بعض الأحيان، رغم أن هناك من يحلو له رد أصولها إلى مصر القديمة، أو إلى اليمن، واليوم بعد فترة طويلة من التعايش (الذي لم يخلُ من الخلافات) وبعد تحالفات واختلاطات زواجية كثيرة، أصبحت جميع شعوب النيجر ملتفة حول علم واحد، دون أن تفقد أصالتها وتراثها الثقافي.

وقد جرت العادة على تصنيف هذه الشعوب إلى صنفين: البدو الذين يعيشون حياة رعوية، والحضر الذين يتعاطون الزراعة.



نخيل في إحدى الواحات في صحراء النيجر

ويؤلف الحضر أغلبية السكان النيجريين ويضمون «الهوسا» (خاصة في وسط البلاد) الذي هم أكثر السكان عدداً، ثم بني «زرما» أو (جرما) وأبناء عمهم بني «سونغي» الذين يعيشون في منطقة النهر، وأخيراً بني «كانوري» و(بري - بري) في شرق البلاد. أما البدو فيتألفون من «الطوارق» (خاصة في الشمال الشرقي من البلاد) ومن «الفولانيين» الذين يظعنون من مكان إلى آخر، فضلاً عن «التوبو» والعرب (خاصة في الجزء الشرقي من البلاد).

الهوسا والتنظيم الإجتماعي:

ينتمي أبناء الهوسا إلى مجموعة واسعة من البشر تعد ٢٥ مليون نسمة، وهم لا يشكلون عرقاً خاصاً بقدر ما يشكلون جماعة تتكلم نفس اللغة. وقد استوطنوا في النيجر بشكل خاص، لكننا نجدهم أيضاً في جزء كبير من إفريقية الوسطى والغربية. أما في النيجر فهم يشكلون نصف عدد السكان. ويقيمون بشكل خاص في مناطق دوغون دوتشي وفي زندر إلى جهة الشرق، وفي طحوه أوا، إلى جهة الشمال، غير أنهم شديدو التنقل (خاصة التجار منهم).

ورغم أن الهوسا يتعاطون الزراعة في معظمهم، فإنهم معروفون أيضاً بكونهم تجاراً وحرفيين. وبعد أن كانوا يقيمون فيما مضى في منطقة غير وصول الطوارق، وهناك أسسوا ١٤ مدينة بمثابة دول مستقلة، مما أدى وصول الطوارق، وهناك أسسوا ١٤ مدينة بمكثابة دولة مستقلة، مما أدى إلى تطور النشاط الحرفي لديهم (المطرّزات، الصياغة، صناعة الجلود، اللآلىء الزجاجية، إلخ...) وتقدم الفن المعماري البديع. هكذا نمت في هذه الممالك الصغيرة، صناعة وحرف حقيقية كانت منتوجاتها مطلوبة مرغوبة.

ويعتبر التكوين العنصري والسكاني في النيجر مدهشاً إذ في الغرب على شاطىء نهر النيجر أو «نيل السودان» يوجد السويزاي والجرما منذ قرون عديدة، والسنغي يعودون إلى زمن دولة (قاو) العظيمة ثم اختلط

الإثنان بالكورني وهم سلالة الفلانيين، ومن الجنوب بمحاذاة النهر توجد قبائل التينجا وهم من أصل هوسا الذي يعيشون بسلام مع قبائل الدندي. ومن الشرق الماوري والجوبي والسودي والتوماو والأوروانداو والكاباتييه والأديراو والجوبراو. أما الهوسا وهم من أقدم القبائل السودانية في إفريقية الوسطى فقد أقاموا في الماضي بمنطقة العير الصحراوية ولكن الطوارق أبعدوهم عنها إلى الجنوب ويعتبرون مزارعين وتجار أكفاء ويقومون بدور هام في اقتصاد النيجر. يضاف إلى تلك الأجناس أجناس أخرى من الجنس الأبيض مثل الطوارق الذين يقال إنهم من أصل يمانٍ والتوبو الشعب الغامض الذي يقول المؤرخون إنهم جاؤا من الشرق الأوسط.

وعندي أن الهوسا والفلاني والسيراقولي وأمثالهم من سكان السودان الغربي القدماء إنما هم من أهل الصحراء عندما كانت خضراء، أما عندما عمها التصحر فقد نزحوا جهة الجنوب تبعاً للمرعى والماء فأثر فيهم الجو القريب من خط الإستواء فصاروا سوداً بعد أن كانوا سُمراً.

لقطات:

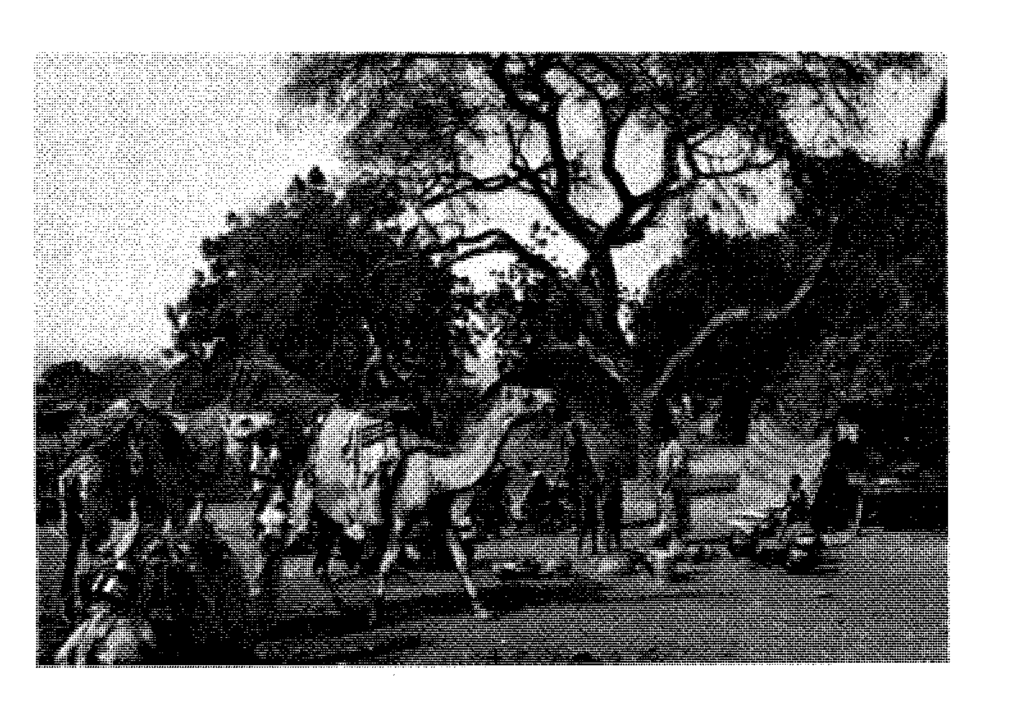
هذه لقطات تاريخية مختصرة منقولة عن كتاب نشرته حكومة النيجر، وبعضها يتحدث عن (النيجر) وما حولها، لكون المنطقة في القديم كانت متصلة ولم تكن جمهورية النيجر هذه تشكل وحدة سياسية قائمة بذاتها منذ قديم العصور، ولذلك نجد في بعضها كلاماً عن نهر النيجر.

النيجر عبر بعض التواريخ:

القرن الخامس ق. م: يذكر هيرودوتوس أن قوماً من «النسامون» (ليبيا) قد وصلوا إلى نهر يقع في جنوب الصحراء: لعله نهر النيجر؟

٨٥ إلى ٩٠ ب. م: أحد الولاة الرومان، سبتيموس سوليوس فلاكوس يصل حتى ضفاف النيجر متعقباً قبائل الغارمانت. من ناحية ثانية، أحد التجار الرومان، يوليوس ماترنوس يصل إلى بلاد آغي - سيمبا (العير؟).

القرن الثالث إلى القرن الخامس: استعمال البعير ينتشر في إفريقية الشمالية ثم في الصحراء وبداية عهد قوافل الذهب والملح.



الإبل النيجيرية

٦٦٦م الفاتح العربي عقبة بن نافع يشن حملة على فزان وكعوار حيث ينتشر الإسلام.

القرن الثامن: إنشاء مملكة السونغي (وعاصمتها قاوقاو).

القرن التاسع: احتمال بداية مملكة كانم الأولى (عاصمتها نجمي على ضفة بحيرة تشاد).

القرن العاشر: تأسيس أولى إمارات الهوسا (داعورا، غوبر، بيرام، رانو، زافيا، كاتسينا كانوا).

القرن الحادي عشر: دياكوسوي في قاو وسلطان أويمي في كانم

يعتنقان الإسلام. بداية نزوج الفلانيين نحو الشرق (انطلقوا من السنغال). بداية استيطان الطوارق في الشمال والجرما في الغرب.

القرن الرابع عشر: امبراطور مالي، كنكا موسى، يضم السنغي وغرب النيجر. دول الهوسا الأولى تعتنق الإسلام (كانو وكاتسينا).

القرن الخامس عشر: إنشاء سلطنة الطوارق في العير. مملكة السنغي تصل إلى أوجها في عهد سينا علي بر. انبعاث مملكة كانم في البورنو في عهد الماي علي غاجي.

القرن السادس عشر: النيجر تنقسم إلى مملكتين كبيرتين في أوج ازدهارهما: السنغي (تحت ظل الأسكية محمد) والبورنو (في ظل إدريس إلا أوما). وصول المغاربة ومساهمتهم في تعجيل سقوط السنغي (معركة تونديبي عام ١٥٩١).

القرنان السابع عشر والثامن عشر: توسع دول الهوسا (لا سيما غوبر). بداية الحركة الإصلاحية الإسلامية في الدول في القرن السابع عشر.

القرن التاسع عشر: الجهاد المقدس يعلنه عثمان دان فوديو الذي أفلح في إيجاد أول دولة إسلامية في إفريقية (عاصمتها سوكوتو).

في الشرق: توسع الداماغار أم في عهد السلطان تانيمون. بداية الإستكشافات الأوروبية للنيجر: الإسكوتلندي مونغوبارك، والإنكليزيان دنهام وكلابرتون، والألمان هنريش بارت وناشتيغال ورولفز فضلاً عن أرفين فون باري. العسكريون يتولون مهمة الإستكشاف بهدف الإستيلاء الإستعماري مع الفرنسيين: الضباط مونتيل وبود وتوت، بعثة هورست، بعثة فوليه ـ شانوان. في نهاية القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، سلسلة اتفاقات لتقسيم إفريقية الغربية بين فرنسا وبريطانيا العظمى.

القرن العشرون: مقاومة الشعوب النيجرية للإحتلال الفرنسي: انتفاضات الجرما (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) ومقاومة كاوسن بين ١٩١٦ و١٩١٧ والسنوسيين في العير.

١٩٠٥: فرنسا تنشىء المنطقة العسكرية في النيجر. بين عامي ١٩٠٣ و١٩١١، نيامي تصبح مقر الحكومة الإقليمية.

١٩١١: نقل المقر الرئيسي للإقليم العسكري من نيامي إلى زندر.

١٩٢٢: النيجر تصبح مستعمرة.

١٩٢٦: نيامي تصبح المقر الرئيسي للمستعمرة.

١٨ ديسمبر ١٩٥٨: النيجر تتبنى وضع الدولة العضو في المجموعة الفرنسية وتصبح جمهورية.

٣ أغسطس ١٩٦٠: إعلان الإستقلال.

١٥ إبريل ١٩٧٤: القوات المسلحة النيجيرية تستولي على السلطة، وعلى رأسها العقيد سيني ـ كونتشي.

اللغة في النيجر:

اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، ولغة الهوسا هي اللغة المحكية الشائعة على امتداد الأراضي النيجرية، وهي بذلك تربط النيجر بالأمة الهوساوية التي تعد ٢٥ مليون شخص.

وهذه اللغة كانت قد انتشرت انطلاقاً من نيجيريا عند هجرة قبائل الهوسا، لا سيما التجار المتجولون الذين انتشروا في كل أنحاء إفريقية الغربية. ولغة الهوسا لغة مكتوبة، لكنها غالباً ما تشكل اللغة المستعملة للتخاطب بين الشعوب الرعاة، من طوارق وفلانيين وفيها حوالي ٣٠٪ من الكلمات العربية إلا أن أكثرها دخله تحوير كبير، وهناك لغة أخرى شائعة الإنتشار في النيجر، في منطقة النهر، هي «السونغاي» و«الزارما» القريبة منها)، وهي معتمدة في بلاد واسعة نسبياً إذ أنها تغطي دائرة كبيرة يرسمها

نهر النيجر ابتداء من «موبتي» في مالي حتى «غايا» في النيجر، ويتكلمها بعض الجماعات من السنغي والزارما التي تسكن في فولتا العليا وبنين ونيجيريا.

أما في شرق النيجر فاللغة المعتمدة هي لغة الكانوري التي يمتد نطاقها حتى «بيلما» في الشمال.

وأما لغة «الفولفولدي» التي أنتجت أدباً مكتوباً (خاصة في القرن التاسع عشر) فهي لغة (الفلاني)، وهي أنقى في غرب «دالول بوسو» مما هي عليه في الشرق حيث نجدها متأثرة ببعض مفردات وعبارات لغة الهوسا.

وأما الطوارق فهم يتكلمون لغة بربرية اسمها «تاماشيك»، تعتمدها قبائل الطوارق جميعاً وهي إحدى اللغات الإفريقية النادرة التي تمتاز بأن لها كتابة خاصة بها، وهي كتابة «تيفينار» التي عثر على آثار عديدة مكتوبة بها بين النقوش الجدارية خاصة في منطقي «عير» الصحراوية.

أما الأبجدية العربية فهي كثيرة الإستعمال في أوساط المثقفين المسلمين للكتابة بلغتهم. مثل مخطوطات الهوسا التي تعرض لتعاقب إماراتهم وممالكهم: قصصهم وحكاياتهم، أشعارهم، رسائلهم الرسمية، التي تكون مكتوبة بأحرف عربية.

تسميتها:

اسمها مأخوذ من اسم النيجر الذي سمي به ذلك النهر العظيم الذي كان يسمى عند أسلافنا العرب بالنيل، وبعضهم كان يسميه (نيل السودان) ويعتقد أنه متصل بنهر نيل مصر بالفعل. وقد استمر هذا الإعتقاد إلى زمن ابن بطوطة إذْ قرره في رحلته.

وإن كان يظهر من تسميته عند بعضهم أن المراد بكلمة (النيل) النهر الكبير تشبيهاً بنيل مصر، ولذلك سمى بعضهم نهر السنغال (نيل غانة) وقال

إنه شقيق نيل السودان يريد بذلك هذا النهر الذي أصبح يسمى الآن (نهر النيجر).

وتسمية هذا النهر العظيم الذي هو ثاني أربعة أنهار إفريقية كبيرة وهي النيل والكنغو ونهر النيجر هذا ونهر السنغال. (بالنيجر). هي تسمية أوروبية مأخوذة أيضاً من اسم (نيجرو) الذي معناه زنجي، أو الرجل الأسود القصير.

وهي تسمية كما ترى تتضمن تعييراً بالسواد وقد أصبحت بعد ذلك مصطلحاً على كل أسود البشرة عند أهل البلاد الغربية أياً كان موطنه.

وقد تابع اللغويون المحدثون من العرب البلاد الغربية على هذا المصطلح فأصبحوا يسمون أسود البشرة بالزنجي.

على حين أن كلمة (زنجي) في الإصطلاح العربي القديم ليست كذلك، وإنما تدل على الواحد من الزنوج أو الزنج وهم أمة أو جيل من ذوي البشرة السوداء يسكنون في إفريقية والجزر التي في البحر الواقع في الشرق منها، ولذلك سموا تلك السواحل (بر الزنج) وهي تسمية شائعة في كتب الثقافة العربية القديمة لا تحتاج إلى شواهد.

وقد بقي منها اسم يدل عليها في تلك الجزيرة الواقعة تجاه الساحل الشرقي لإفريقية أي بر الزنج القديم وهي جزيرة (زنجبار) التي أصلها (بر الزنج) فحرفت في اللغة السواحلية إلى هذا اللفظ. ولم يكن العرب الأقدمون يسمون ذوي البشرة السوداء من غير أولئك الأقوام بالزنوج بل كانوا يسمونهم أسماء مختلفة تتفق مع كونهم أمماً مختلفة مثل الحبشة والنوبة والسودان والتكرور والكانم.

وفيما يختص بهذه البلاد النيجر كان العرب يسمون أهلها ومن كانوا إلى الغرب منها، وكانت لهم صلات كثيرة معهم في الأغلب الأعم بالسودان أو السودانيين ثم أخذ الناس في العصور القديمة يسمونهم أو التكاررة.

وهذا يصدق على أهالي شمالي نيجيريا من الحوس (الهوساويين) والفلانبين والبرنو وما كان غرباً من ذلك وجنوباً غربياً منه.

ولكن بعض العرب المحدثين المقلدين سموهم الزنوج تقليداً للأوروبيين كما صنع أحدهم حينما عنون كتابه (في بلاد الزنوج). يريد بذلك بلاد نيجيريا.

وقد أصبحت كلمة النيجر مستعملة بل معترفاً بها من أهل البلاد فأصبح اسم النهر النيجر ليس له اسم مستعمل غيره وأصبح اسم هذه الجمهورية النيجر ومعناها الأمة التي تعيش على ضفاف النيجر أو حول النيجر. ولم يشأ أهلها أن يغيروا هذه التسمية الإستعمارية لا لكونهم راضين عن معناها وإنما لأن بلادهم تضم مواطنين ينتمون إلى عناصر من الناس متعددة أو باللفظ الحديث قوميات عدة لها لغات مختلفة، وتسمية البلاد بإسم قومية دون أخرى يثير حساسيات قد توقظ فتناً راقدة.

وقد أخبرني عدد من مفكري النيجر الذين عاصروا عهد إعلان الإستقلال ومنهم الشيخ عمر جالو أنهم فكروا طويلاً في تسمية النيجر باسم وطني عريق يبعد عنها هذه التسمية الإستعمارية (النيجر) فطرحوا اسم (السودان) لأنه تاريخي عريق وهو موضع فخر لأهل هذه المنطقة ولكن كان يرد عليه أنه كان اسماً لمناطق واسعة تضم مالي وأجزاء واسعة من السنغال ونيجيريا وتشاد.

كما أنه أصبح الآن إسماً حيّاً لقطر مسلم إفريقي آخر هو السودان الشرقي الذي عاصمته الخرطوم.

قالوا: وقد استعرضوا عدة أسماء منها جمهورية التكرور ووجدوا أن لفظ التكرور صار الآن يطلق على قبيلة أو طائفة واحدة لوجوده في السنغال، وترجع إلى الفلانيين وحدهم، وهم لا يؤلفون إلا عنصراً واحداً من عناصر المجتمع في النيجر ليس هو أكثرها عدداً.

وأخيراً رأوا إبقاء الإسم كما هو (النيجر).

الأيام النيجرية

يوم السبت ١ ذي الحجة ١٤٠٢ هـ - ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ م:

من جدة إلى نيامي:

قامت طائرة الخطوط الإفريقية من طراز دي سي ثمانية في الساعة العاشرة صباحاً وأعلن المضيف باللغة الفرنسية أولاً ثم بالإنكليزية أن الرحلة تستمر خمس ساعات وخمساً وعشرين دقيقة من الطيران المتصل.

لم يكن في الدرجة الأولى معنا أنا وزميلي السفير عبد الوهاب الدكوري إلا شخصان. أما الدرجة السياحية فإن عدد الركاب فيها قليل أيضاً ربما لا يزيد على خمسة عشر راكباً رغم طول الرحلة - وأما المضيفون فإنهم جميعاً من الرجال الأفريقيين. مع العلم بأن بعض الركاب ذاهب إلى داكار وبعضهم ذاهب إلى نواكشوط عاصمة موريتانيا لأن الطائرة تذهب في هذه الرحلة نفسها الى داكار ونواكشوط.

وقد كتبوا على الطائرة الإرشادات بالعربية والإنكليزية.

إن سمعة هذه الشركة الإفريقية للطيران (أيرأفريك) جيدة فهي ليست كسمعة طيران بعض البلاد الإفريقية مثل نيجيريا أو غانا وذلك بأنها شركة بين عشرة من الأقطار الإفريقية التي تتكلم الفرنسية بمعنى أنها كانت مستعمرات فرنسية سابقة وهي على وجه العموم أحسن معاملة للناس،

وأفضل في الإدارة من كثير من الأقطار الإفريقية التي تتكلم الإنكليزية لأنها كانت مستعمرات انكليزية سابقة.

قطعت الطائرة البحر الأحمر بسرعة وبعد أن تجاوزته بقليل بدا منظر الجبال الإفريقية غربه يشبه تماماً منظر الجبال الآسيوية التي تقع شرقه في المملكة.

وبعد قليل أعلن الطيار بالفرنسية أننا نطير الآن ما بين الخرطوم وبور سودان وأننا سوف نمر فوق زندر في النيجر وهى بلدة قريبة من الحدود الليبية.

بعد أن تجاوزت الطائرة حدود السودان الغربية مع تشاد وفي شرقي تشاد كان المنظر هو الصحراوي غير أنه صحراوي خصب نوعاً ما إذ تبين المراعي وبعض الأشجار الخضر في الوديان. وبذلك تغير المنظر الصحراوي القاحل الذي كان موجوداً على سواحل المملكة وسواحل السودان الشرقية التي مررنا بها إلا أن المنظر الصحراوي عاد إلى الظهور تحتنا عندما دخلنا حدود النيجر، ولا غرو إذ هي في الصحراء الإفريقية الكبرى.

وقد قدموا في الطائرة غداءاً جيداً وقبله كان طبق المقبلات جيداً فيه شرائح من سمك السلمون. وكانت الطائرة تمعن في سيرها جهة الغرب والصحراء الكبرى كأنما تتحداها بمنظرها الجاف وأرضها الغبراء، التي يكاد يخيل إليك أنها لا تنتهي.

في مطار نيامي:

عندما كانت الطائرة تقترب من المطار كانت في الحقيقة قد ابتعدت عن الأراضي الصحراوية الخالصة للصحراء لأن مدينة (نيامي) واقعة في الأراضي التي يسميها الناس المدارية وهي أراضٍ غير صحراوية وغير استوائية ممطرة فليست جافة كالصحراء ولا كثيفة الخضرة كأراضي خط الإستواء.

لذلك كان المنظر تحتنا منظر الأراضي ذات الأشجار المتفرقة غير النضرة وذات الأعشاب غير الكثيفة إلا في مجاري الوديان فهو قد ذكرني بمنظر الأرض في شمال نيجيريا ومثل هذه المناطق تتوفر فيها الفرص إذا نزل عليها مطر كافٍ للزراعة وتربية الماشية لا سيما أنها أراضٍ منبسطة جيدة ومع ذلك لم أرَ فيها حقولاً أو زراعة، وربما كان ذلك بسبب ارتفاعها عن مستوى مياه النهر، وليس عند القوم قدرة من مال أو خبرة من علم تجلعهم يسحبون مياه النهر أو يحفرون شبكة من المياه الجوفية لتروي هذه الأراضي الواسعة الصالحة للزراعة، شأنهم في ذلك شأن النيجيريين وحتى السودانيين الذين كان المرء يشاهد شواطىء النهر في بلادهم يابسة مغبرة في بعض الأماكن خالية من الزراعة تماماً.

وقد لاحظت شيئاً من بقايا المطر كان قد جاد الأرض قبل مدة قصيرة، فالموسم الآن هو الخريف الذي يراد به في هذه المنطقة الأمطار الموسمية التي تهطل عادة في شهر أغسطس.

ثم بدا نهر النيجر العظيم الذي كان الأولون من أسلافنا العرب يسمونه النيل: نيل السودان ظناً منهم أنه متصل بنيل مصر أو تشبيهاً له بالنيل وهو يشبه النيل بالفعل على البعد في اتساعه وتشابه مجراه للناظر، ووجود بعض الحيوانات الكبيرة فيه كأفراس النهر.

ولم أرَ ضواحي أو منازل في المنطقة التي تلي المطار مباشرة بل كانت كلها خالية إلا ما كان من شريط على النهر العظيم: النيجر.

هبطت الطائرة في مطار لا بأس بمدارجه ومظهره في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر بتوقيت المملكة العربية السعودية، ويساوي الواحدة والربع بتوقيت (نيامي) فهي تتأخر عن المملكة بساعتين وهذا أمر طبيعي بل الطبيعي أن يكون الفرق أكثر من الساعتين لأنها موغلة في جهة الغرب بالنسبة إلى موقع المملكة.

استقبلتنا نحن ركاب الدرجة الأولى مضيفتان أرضيتان قال أحدهم: إنهما من البروتوكول أي: المراسم فأجلسانا في غرفة كبار الزوار (صالون

الشرف) وهو مكيف وصادفنا فيه رجلاً كان سفيراً للنيجر في عدة بلدان منها الحبشة، وكان يريد السفر فحجز لنا في أكبر فندق وأفخره هنا واسمه (جاوي) كما استدعى سيارة الفندق وعند ذاك أحضرت إحدى الفتاتين الجوازات والأمتعة.

في مدينة نيامي:

انطلقت سيارة الفندق وكان الجو يبدو حاراً جافاً لا يخلو من السموم ذكرني بجو شمال نيجيريا. وإن كان أقل منه سموماً بسبب اختلاف الوقت فنحن في شهر سبتمبر شهر الأمطار وانصراف الشمس إلى الجنوب قليلاً عن هذه البلاد التي تقع شمال خط الإستواء. على خط العرض الثاني عشر. فهي لهذا ليست بعيدة في الموقع من الخرطوم وبانكوك وداكار رغم اختلاف الطقس وألوان الناس وقاماتهم فيها وإن كانت كلها تجتمع في كونها ليست بذات شتاء بارد.

وقد وجدنا كل ما مررنا به في الطريق إلى الفندق ينطق بالتنظيم والعناية فالطريق مزدوج جيد، والمنطقة التي يمر بها معتنى بها بالنسبة إلى البلاد الإفريقية، حتى اتجاه السير قد رسموه بالألوان البيضاء على الأرض، ولاحظت هنا شيئاً لاحظته في نيجيريا وهو كثرة راكبي الدراجات النارية والهوائية مما يدل على وجود طبقة متوسطة بين الفقراء وحسني الحال، وليس كما عليه الحال في بعض البلدان الإفريقية إن لم نقل في أكثرها حيث يغلب الفقر على أكثر السكان ويكون الأغنياء قلة نادرة.

وعندما قربنا من الفندق دخلنا ضاحية حديثة مشجرة قريبة جداً من نهر النيجر من الأشجار التي تلفت النظر فيها أشجار النيم المزدهرة كما في شمال نيجيريا وبخاصة في مدينة (صوكوتو).

نزلنا في فندق (جاوي) وهو من فنادق الدرجة الأولى الجيدة وتقوم عليه شركة (سوفتيل) الفرنسية للفنادق وهو حديث انشىء قبل سنة

وكـان أول الفنادق التي نـزل فيها أعضـاء مؤتمر وزراء خـارجيـة الـدول الإسلامية الذي انعقد في نيامي قبل أقل من شهر.

وأجرة الغرفة الواحدة فيه للشخص الواحد سبعـة عشر ألف فـرنك إفريقي وهو عملة أهل البلاد ويساوي ذلك ثلثمائة وأربعين فرنكاً فرنسياً أو مائة وسبعين ريالاً سعودياً وهذا رخيص بالنسبة إلى مستوى الفندق.

ومعنى اسم نيامي: إنزل هنا:

تقول الأسطورة إن اسم نيامي أطلق على هذا الموضع من قبل أحد سكانه الأوائل وهو أحد أشراف قبيلة «كالي» التي تنتمي إلى بني زرما. وكان هذا الرجل قد أمر عبيده باحتلال ذلك المكان الشاغر، مخاطباً إياهم بهذه الكلمات: «أوا نياماني»، أي ما معناه: تناولوا شيئاً من هنا وشيئاً من هناك. ثم ما لبثت نياماني أن أصبحت نياما ثم تحولت إلى نيامي. وكان بنو كالي أول من سكن نيامي وأطلقوا اسمهم على حي كالي.

أما حي غاو (الذي أصبح بعد ذلك غاوي) ويقع فيه فندقنا فقد سكنه بالأصل أناس كانوا يسمون «أهل غاو».

ومعلوم أن (غاو) كانت عاصمة السنغي وتقع إلى الغرب من نيامي على بعد حوالي خمسمائة كيلو متر في شرقي جمهورية مالي.

الماء الغالي:

طلبت زجـاجة من ميـاه الشرب فـأرسلوها لي مـاءً معدنيـاً من مياه المغرب المعدنية المسماة (سيدي حرازم) وأخـذوا ثمنها ألف فـرنك أي عشرة ريالات سعودية فظننت أن الغلاء هو الصفة الغالبة على هذه البلاد.

غير أن رفيقي السفير عبد الوهاب الدكوري أراد أن يزور أقارب له في ضاحية من المدينة فركب سيارة أجرة بمائة فرنـك أي ريالين سعـوديين، فقلت: يا عجباً! أيكون ثمن زجاجة الماء يكفي لخمسة أشواط (مشاوير) بسيارة الأجرة؟

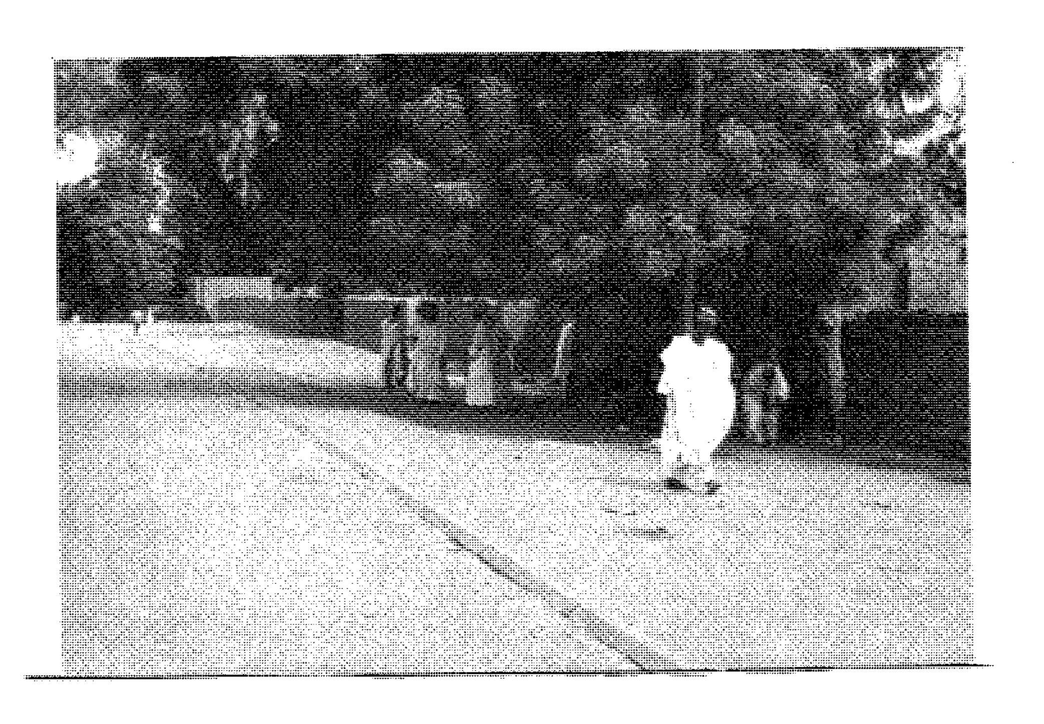
ثم كان عجبي أكثر عندما طالعت قائمة بالأطعمة الخفيفة والمشروبات قد وضعوها في الغرفة فوجدتهم ذكروا أن ثمن كأس الشراب من الفودكا أو الشبمانيا أو الكونياك سبعمائة فرنك. فقلت في نفسي ولرفيقي: إن هؤلاء قد أصابوا دون غيرهم من العالم حينما جعلوا الماء الطيب أغلى من (أم الخبائث) وإن أخطأوا في تقديمها في هذا الفندق.

هذا مع أن الفندق بل المدينة كلها واقعة على نهر النيجر العظيم الذي يزخر بالماء العذب كما يزخر النيل، ولكن الأمر يتعلق بالرغبة في الماء العذب أو بالثقة بتعقيم الماء المعتاد. كان أقرباء الشيخ الدكوري الذين ذهبنا إليهم يسكنون في حي حديث ملاصق للحي الذي فيه فندقنا فانطلقت السيارة في شارع واسع جيد ذي اتجاهين يسمونه (شارع ميتران) على اسم فرانسوا ميتران رئيس فرنسا الحالي، لأنه كان قد زار النيجر بعد إصلاح الشارع بقليل.

ومررنا بمبنى وزارة الخارجية وهو من أحسن المباني لوزارات الخارجية في إفريقية الغربية إن لم يكن أحسنها، ثم وزارة المعادن ولها أهمية خاصة في هذه البلاد لأن النيجر تنتج من معدن اليورانيوم وحده مقداراً كبيراً جيداً، ولديها أيضاً معادن أخرى وإن كان استخراجها لا يأتيهم بعوائد أو فوائد كثيرة.

وقد غرسوا شوارع هذا الحي بأشجار ظليلة تبينا عظم تأثيرها على الطقس عندما تجاوزناها إلى منطقة ليس في شوارعها أشجار، فكانت حارة ذات سموم في هذا الوقت من الظهيرة الذي هو الرابعة والنصف من بعد الظهر.

كان رجل البيت الذي قصدناه اسمه (باخان بال) وهو سنغالي الجنسية ويعمل ممثلاً لشركة (اير إفريك) في النيجر ويسكن في دارة (فيللا) قد أعدتها له الشركة بالمجان ولكنه سوف يغادرها بعد أسبوع إذ تقرر نقله إلى (لومي) عاصمة (توجو) إحدى الدول الإفريقية المشتركة في شركة طيران إفريقية (اير إفريك).



والبيت مكيف ولا يستطاع العيش الرخي بدون تكييف. بل إنني شعرت بأن الجو هنا أحر من الرياض، في هذا الفصل من السنة مع أن هذا ليس موسم الحر بل هو موسم الإعتدال والمطر فيما يذكرون.

وفيما يتعلق بالمطر في هذه البلاد التي عانت مع عدد من جيرانها من الجفاف منذ خمس سنوات فماتت المواشي وهلكت الزروع، وأصاب تلك البلدان مجاعة استدعت مساعدات دولية كثيرة فإن المطر ونزوله في موعده له أهمية خاصة ربما لا تقل عن أهمية ذلك في البلدان الصحراوية التي ألفت قلة المطر وكيفت حياتها على ذلك.

أما هؤلاء الذين يسكنون في هذه البلدان الإفريقية على حدود الصحراء الكبرى فإنهم يعتمدون على مياه الأنهار وعلى تساقط الأمطار التي

تدخر الماء لهم في الآبار المعتادة، ولم يتعودوا على أن يأخذوا للأمر أهبته فيحفروا الآبار الإرتوازية العميقة، أو يقيموا خزانات المياه على الأنهار حتى تضمن لهم مخزونات كبيرة من المياه، ولو أرادوا أن يفعلوا ذلك اليوم لما استطاعوا إليه سبيلاً بسبب فقر دولهم، وافتقارها إلى الإدارة الحازمة النزيهة المدربة، التي تستطيع أن تدخر الأموال، وتحصل على الثقة بالوفاء بالديون إذا استدانت.

ويقع هذا البيت في ركن من الحي ذي دارات جيدة تحيط بكل دارة حديقة نضرة وشوارعه واسعة إلا الداخلية منها فغير مزفلتة، إلا أن الذي يخفف من ذلك أن حركة مرور السيارات فيها غير كثيفة.

والمياه الجوفية اللازمة لسقي الحدائق متوفرة هنا لقرب المنطقة من النهر إلا أنني لاحظت أن الحديقة في البيت ليس فيها شجرة مثمرة واحدة فكلها من أشجار الظل أو الزينة وسألتهم عن الشجرة المثمرة الشائعة في هذه المدينة فلم يعرفوا.

وجدنا ربة البيت قد أعدت مائدة غداء سخية على عادة السنغاليين الذين هم كما عرفتهم من أكثر الإفريقيين جنوب الصحراء كرماً. كما أن المغاربة هم أكثر العرب المعاصرين كرماً وإكراماً للضيف على الإطلاق.

وقد ضمت نوعين من الأسماك ولحم الضأن إلى جانب الأرز والخضروات ثم الشاي الأخضر الوطني أي الذي غلي حتى كاد ينعقد من الطبخ.

على شط النيل:

كتبت هذه الجملة وكدت أن أكتب السجعة المشهورة بعدها في مصر وهي قولهم (تحلا المواويل)، والمواويل: جمع مَوَّال وهو نوع من الغناء أو الحداء. على عادتي في تسمية هذا النهر نهر النيجر العظيم باسم النيل من أثر ما علق في ذهني من تسميته عند علمائنا الأقدمين باسم النيل ظناً منهم

أنه امتداد لنيل مصر وأنه من هنا يذهب إلى هناك وذلك لغموض منبعه وتلوي مجراه وتغيير اتجاه سيره أكثر من مرة.

غير أنني ذكرت عندما فكرت بأن منبع هذا النهر قد عرف منذ أن اكتشف قبل مدة بأنه ينبع من جبال غينيا المسلمة ويصب بعد أن يخترق عدة بلدان في المحيط الأطلسي الذي كان أسلافنا يسمونه بحر الظلمات لأنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوه في اتجاه الغرب. وقد يسمونه البحر المحيط الأعظم.

سرنا بالسيارة على شاطىء نهر النيجر نبتغي (مقهاة) نشرب فيها القهوة ونتفرج برؤية هذا النهر العظيم ومن يسكنون حوله.

فسلكنا الضفة الجنوبية منه ذاهبين في اتجاه الشرق فإذا الشاطىء محاط بأشجار ظل وارفة ولكنها تنقصها إرادة الجمال أو التزيين فكلها أشجار ليس فيها أزهار، والغريب الذي صدم نظري في هذا الشاطىء العذب المياه كثرة أشجار العُشرَ التى نعرفها في بلادنا صحراوية غير نافعة لا تذوق البهائم فضلاً عن الأناسي أوراقها. ولا تنفع أغصانها إذا يبست في حطب أو غيره إلا بأن تحرق وتتخذ فحماً يستعمل في صناعة البارود المتفجر. وحتى ظلها ليس وارفاً بل هو شبيه يظل شجرة العوسج الشائكة ولذلك تزعم العامة عندنا أنها من مساكن الجان. وأشجار العشر قد وجدت مرتعاً خصباً هنا فنمت واخضلت غير أنها هي هي التي نعرفها بقلة النفع ومرارة الطَلْع.

ووجودها هنا يدل على أننا بالفعل نقف على حدود الصحراء لأنها ليست من أشجار المناطق الإستوائية ولا من أشجار البلاد الباردة.

وبين الأشجار رأينا بيوتاً طينية ليست بعيدة عن بيوت الطين التي كانت موجودة عندنا لولا اختلاف طراز البناء وبنيات ونساء من المواطنات السوداوات خارج بيوتهن جالسات كما تفعل الإفريقيات الوطنيات المحافظات على العادات.

وقد وجدنا (المقهاة) ذات موقع جميل، في ظل ظليل في هذه البلاد الحارة من هذه القارة الإفريقية إلا أن بابها وإن كان مفتوحاً فإن باب العمل فيها موصد، وقال رجل فيها: إن الحكومة قد أغلقتها، فقال قائل: ربما كان ذلك لأمر من الأمور التي يؤاخذ عليها رئيس الدولة الحازم الذي لا يسامح في المخالفات (حسين كونتشي) كأن تكون النظافة الحسية أو المعنوية فيها معدومة، ولكن الرجل لم يستطع أن يصرح بل ولا أن يعرض خوفاً من عقاب مبرح.

فقلنا لسائق السيارة: ألا يوجد مكان غيره على النهر نشرب فيه القهوة أو الشاي؟ فقال: لا.

وهذا عجيب أن تخلو هذه المنطقة الجميلة من أهم وسيلة من وسائل التسلية وهي الجلوس على شط النهر وشرب فنجان من القهوة أو الشاي، وطبيعي أن ذلك المكان يوجد في الفندق لأنه على شاطىء النيجر ولكننا أردنا غيره. وإذا كان السبب هنا سبباً اقتصادياً في كون عامة الناس لا يستطيعون أو لا يريدون أن يدفعوا ثمناً غالياً لمشروب في مثل هذا المكان من الفندق، فإن السؤال يبقى عن السبب في عدم وجود مقاهٍ شعبية أيضاً؟...

فقلنا للسائق: إذاً أنزلنا عند الجسر الذي بقرب الفندق.

الجَمَّال باللباس الإفرنجي:

والجَمَّال هنا: بتشديد الجيم المراد به صاحب الجمل الذي يحمل عليه الأثقال يرتزق من ذلك، وقد سمي جَمَّالاً نسبة إلى الجمل ولم يقولوا بَعَّاراً ـ نسبة إلى البعير الذي يشمل الذكر والأنثى، لأن الجمل أقدر على الحمل من الناقة وأصبر منها على ذلك كما هي الحال في أكثر ذكور الحيوان.

من المفاجىء لي أن أرى كثرة الإبل أو على القول الشائع الجمال في هذه العاصمة التي هي وإن كانت تعتبر عاصمة لدولة صحراوية فإنها

هي نفسها واقعة في منطقة غير صحراوية إذ هي في زاوية من زواياها قد فرت من الصحراء ولجأت في حضن نهر النيجر العظيم الذي تسميه بعض الشعوب التي تقطن على ضفتيه (نهر الأنهار) كما يسمى التايلنديون نهرهم الذي تقع عليه عاصمتهم (بانكوك) (سيد الأنهار) مع الفارق الكبير ما بين النهرين في الحجم وطول المسير.

ولكن الشيء الذي كان مفاجئاً لي أيضاً أن الجمَّال يقود جمله وهو يرتدي لباساً إفرنجياً بعد أن كانت عيني قد ألفت قائد البعير وهـو يلبس لباساً عربياً أو حتى لباساً آخر فضفاضاً كما هو عليه الحال في البلاد العربية وفي منطقة السند في باكستان وما يجاورها من بلاد الهند كولاية راجستان ـ وقد قضيت وقتاً قبل الغروب مع صديقي الدكوري على شاطىء النهر أتفرج على سقوط قرص الشمس في نهر النيجر العظيم وأرقب عشرات إن لم يكن مئات الجمالين الذين جاؤوا بجمالهم ولكنهم من دون استثناء يرتدون الزي الإفرنجي وهو يوردونها خضم المياه العذبة من هـذا النهر لتروي ظمأها من مياهه تعوض بذلك عن مقادير كبيرة من المياه التي فقدتها طول النهار من الحر والتعب.

وكل هذه الجمال مخصصة لحمل الأثقال وأكثرها لحطابين أو بائعي حطب يحملون الحطب على البعير ويبيعونه في المدينة لأنه لا يزال الوقود الرئيسي لعامة الناس، مما ذكرني بمناظر من بلادنا كانت فبانت حتى أصبح الجيل الجديد من أبنائنا لا يراها، ولو رآها لاعتبر أن عينه قد وقعت على منظر غريب، إلا أن أحمال الحطب على إبلنا كانت أكثر وأوفر، والجمالون عندنا على إبلهم أظلم وأقسى. فالحطب هنا قليل ربما ليتيسر ثمنه على بعض المشترين المعسرين أو أشباه المعسرين.

ويبيعون حمل البعير من الحطب على عدم كثرته بأربعة آلاف من فرنكاتهم الإفريقية التي يساوي الخمسين فرنكاً منها واحداً من الفرنكات الفرنسية وتساوي المائة منها ريالاً سعودياً واحداً.

وقد سألت عن ثمن الجمل الواحد في المتوسط فأخبرني أربابها بأنه

يساوي في المتوسط مائتي ألف فرنك أي ألفي ريال سعودي. وهو ثمن غالٍ هنا بالنسبة إلى قلة النقود، ووفرة العشب، وهو يدل كما يدل غلاء اللحم في نيجيريا على أن القوم هنا كما في باقي إفريقية وربما في باقي البلدان النامية في آسيا وأمريكا الجنوبية أيضاً ليست مشكلتهم الإقتصادية منحصرة في أنه لا يوجد لديهم طاقات للعمل في تحسين اقتصادهم وإنما المشكلة في عدم قيامهم بالعمل على ذلك.

وإبلهم كبيرة الأحجام إلا أنها غير ضخام فهي عالية الأبدان والأسنمة طويلة القوائم إلا أنها أقل عرضاً من الإبل في بلادنا أو على الأدق هي أكثر ضموراً ورشاقة من إبلنا فكأنها نجائب الإبل العمانية مع أنني لم أرَ النجائب هنا وإنما رأيت جمال الحمل الثقيل.



أبقار للبيع في نيامي

فهي هنا ليست كالبقر عندهم التي هي أكبر من بقرنا، وإنما تشبه الحال فيها حال الغنم عندهم التي هي أعلى من غنمنا قامات ولكنها ليست أكبر من الغنم النجدية فهي تشبه (الأغنام) السودانية التي نسميها (السواكن) لأنها ترد الينا من ميناء سواكن على ساحل البحر الأحمر إلا أن أغنام النيجر أطول قامات ـ إن صح التعبير ـ من الأغنام السودانية أيضاً.

ويكاد يجمع الباحثون على أن هذه الإبل الإفريقية الصحراوية هي عربية النسب، نجدية الأصل، دخلت إلى الصحراء الإفريقية، بعد أن كان قد عمها الجفاف قبل حوالي خمسة آلاف من السنين، وكان دخول الإبل إلى الصحراء الإفريقية في زمن يقرب من زمن البعثة النبوية أو قبلها بقليل، وأنها جاءت إليها من مصر مع البربر الذين قدموا من الصحراء إلى البلاد التي يتوفر فيها المرعى جنوباً منها التي يسميها بعض الكتاب (إفريقيا المدارية).

وكان البربر قد أخذوها من العرب أو الأعراب الذين دخلوا بها إفريقية من مصر وقد جاءت إلى مصر من الجزيرة العربية.

ويستدل الباحثون على ذلك في بحث ليس هذه اليوميات بمحلة على أن الجمل حديث الدخول إلى الصحراء الإفريقية بأن الرسوم التي خلفها سكان الصحراء القدماء قبل أن تتحول إلى صحراء قاحلة لم يرسموا الإبل في متروكاتهم المنقوشة على الحجارة، وذلك لعدم الضرورة إلى البعير الذي خلق ليعيش في الصحراء وليخدم الإنسان فيها، وإنما رسموا حيوانات أخرى تعيش في المناخ المعتدل الخصب قبل أن يتغير المناخ في هذه الصحراء الواسعة بل التي هي أكبر الصحارى في العالم كله.

وكنت أتوقع أن يكون أهل الإبل في هذه البلاد من سكان الصحراء في الأصل مثل الطوارق والموريتانيين ممن يغلب عليهم اللون الأسمر، غير أن كل الذين رأيتهم اليوم مع الإبل هم من قبيلة (جارما) المعروفة بسواد ألوان أهلها أو من أناس يقاربونهم في اللون.

عراة في النهر:

الجو حار في هذه الأمسية مع أن الفصل هنا هو فصل الخريف كما يسمونه، ويريدون به موسم الأمطار التي تلطف الجو فإذاً الجو في أغلب السنة هو حار، وفي الجو الحار يطيب للإنسان ولكثير من الحيوان الإستحمام في أواخر النهار لإزالة وضر النهار الحار الطويل.

وقد رأيت شواهد على ذلك في نيجيريا وفي تايلند وفي إندونيسيا وغيرها من بلاد الأنهار والطقس الحار.

وفي هذه الأمسية جاء أمامنا أعداد إلى النهر من الرجال يغتسلون فيه عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم غير مبالين بالجماعات الكبيرة من الناس التي كانت تقف على النهر إما للحاجة أو لمجرد التفرج على النهر وإزجاء وقت في نسماته الباردة.

ومن الغريب أن بعضهم أراهم ينزعون ملابسهم عن أجسادهم وهي ملابس خفيفة ومنها السروال الداخلي القصير الذي يستر العورة المغلظة، ولو أبقوا عليه لستر من أجسامهم ما يجب ستره لكان ذلك أخف بلاءاً وأقل عرياً ولما كلفهم غسله ونشره شيئاً ولكنهم يرمون به أيضاً وكأنما الواحد منهم بين جدران أربعة من منزله، وهو في الواقع بين جدران شتى من عدم الحياء وعدم المحافظة على الآداب العامة، وإن كان العرف والذوق يختلف في هذه الأشياء بين قوم وآخرين.

وغني عن القول بأن هؤلاء كلهم مسلمون لأن الأغلبية في هذه المنطقة إن لم نقل كل السكان هم من المسلمين، ومن المخجل أنه كانت هناك طائفة من النسوة جئن إلى النهر كما يجيء الناس، فكن يرين من هذه الأجسام العارية ما يراه الرجال. ولكني لا أدري ما إذا كن يبالين بذلك أم أن العادة قد علمتهم جميعاً عدم المبالاة به.

وكانت فتاتان منهن من قبيلة (جارما) التي كان المؤرخون المتأخرون يسمونهم (بني زرما) من بين الموجودات، وقد جلسن على مكان مرتفع

ينتظرن فسأل الشيخ الدكوري إحداهما عما تفعله هنا فقالت: إنها جاءتا تتفرجان ولا عمل لهما لأن هناك بعض النساء لهن عمل هنا مثل عدد من النساء كن يغسلن بعض الأعلاف الخضر في مياه النهر، وبعضهن كن يغسلن جلوداً أيضاً فيه.

ومن الطريف أيضاً أنه بالقرب من هؤلاء الذين يسبحون عراة في النهر يوجد مطبخ عام كبير لطبخ الطعام الشعبي الإفريقي التقليدي الذي هو عروق كعروق الأخشاب الغليظة تكون تحت الأرض ويأكله الأقوام التي تقع بلادهم تحت خط الإستواء من إفريقية وآسيا وأمريكا الجنوبية، ويسمى في شرقي إفريقية (موهوقو) وبالفرنسية (ما ينوكا) وفي غرب إفريقية منه (يام)، و(كسافا)، وعلى ذلك يمكن من يشبع من السباحة في النهر أن يشبع من هذه الأكلة الشعبية التي تشبه العصيدة غير اللينة بثمن لا يكون غالياً في العادة.

وغير بعيد من ذلك باعة العلف للدواب، ولم أرَ في علفهم برسيما أصلاً لكونه لا يوجد في هذه البلاد وإنما رأيت أوراق الذرة البيضاء وأعلافاً خضراً أخرى لا أعرفها.

وحانوت رجل قد صنعه من القش على هيئة عشة وقد ملأه تقريباً بالقرع الذي هو قريب الشكل من المألوف في بلادنا بنوعيه الذي نسميه المصري ويسميه المصريون (العسلي) والآخر الذي نسميه الشامي.

وقد أخترت واحدة منها كبيرة تزن ثمانية كيلات فسألته عن ثمنها فأجاب بألف فرنك أي عشرة ريالات.

مناظر متناقضة:

كنت أرقب هذه المنطقة فأجد مناظر متناقضة تناقضاً عجيباً ولكنها غير متنافرة. في هذه البلاد التي لا يجمع بين أهلها جامع عرقي ولا لغوي وإنما يمنعها من التناقض الوحدة الإسلامية التي هي الدين العام الشامل لأهلها رغم كونهم من قبائل شتى وأعراق مختلفة. وإن كان قد يتبادر إلى

الذهن أن كثيراً منهم يتجانسون في الألوان التي أكثرها السواد وأقلها السمرة الشديدة حتى اللغات عندهم متعددة متباينة ولكن الديانة واحدة موحدة هي الإسلام الحنيف في الأصول وفي الفروع يوحدهم تقليد المذهب المالكي المنتشر في أكثر أرجاء إفريقية الغربيـة، في شمالهـا وجنوبهـا حتى خط الإستواء.

فمن المناظر المتنـاقضة منـظر الجمال الصحـراوية تشـرب من هذا الخضم الضخم من المياه النهرية العذبة التي تسرع في جريانهـا سرعـة تخشى عليها بسببها من النفاد.

ومنظر هؤلاء القوم الذين يقودون الإبل بالزي الإفرنجي إلى جانبهم جماعة من المشـاة عليهم القميص الإفريقي الـطويل وإن كـان لا يطاول القميص العربي في أكثر الأحيان. إلى جانب متـظر رجال عليهم لبـاس (الطوارق) الصحراوي الذي يتألف من ثياب فضفاضة واسعة الأكمام فوقها عمامة كثيرة الطيات وينزل منها قسم كبير يستر الفم وأكثر الوجه كما تستر المرأة المستحية فمها بقناعها، لأنهم قوم من الملثمين الذين يرون أنه من غير اللائق أن يرى الناس فم الرجل بخلاف المرأة التي لا يرون بأساً في أن تكون سافرة الوجه، حاسرة اللثام.

وقريب من منظر سقوط الشمس في مياه نهر عظيم في بلاد صحراوية متخلفـة في عرف الأوروبيين ومن يقلدون الأوروبيين يـطل فندقنـا الـذي نسكن فيه فندق (جاوي) يتحدى الصحـراء والجفاف ومحـافظة الصحـراء وتقاليدها التي ترجع إلى سالفات القرون وهو بطرازه الحديث بل الذي سبق كثيراً من الطرز الحديثة وبمعيشة سكانه الأوروبية الخالصة وبكل ما فيه قد سابق الزمن وجعل الذي يدخل ولا يسرح بصره إلى خارجه لا يتخيل أبداً إلا أنه في باريس.

ونهر النيجر وكدت أقول نهر النيل يجـري هنا مسـرعاً من الشمـال الغربي إلى الجنوب الشرقي حتى لقد عجبت من سرعة جريانه عندما رأيت أكواماً من الأعلاف الخضر على ظهره وهي تطفح عليه تسبح فوقه بسرعة

ولم تكن تلك السرعة الكبيرة تتضح في خضم الماء إلا في مثل هذه الحالة أو عندما يقف المرء عند شاطئه تحت الجسر فيراه أسرع جرياناً من نهر النيل عند القاهرة بكثير.

وهو يشبه النيل في سعته هنا إلا أنه يخيل إليَّ أنه أقل عمقاً من النيل وإن لم أجد على هذا من دليل، وجمهرة الأهالي لا أراهم يتمتعون في هذه الحال من هذا النهر العظيم إلا بالإغتسال. وإرواء الجمال، وإلا فلا مطاعم ولا مشارب ولا منتزهات، كما لم أرَ على شاطئه حدائق عامة أو بساتين إلا أشجاراً من ذوات الظل الظليل.

وقد رأيت فيه جزيرة صغيرة جميلة إلا أنها عذراء ليس فيها أعشاب وحشية خضراء. ولو كان هذا المكان عند سكان لديهم وفرة من مال ورغبة عارمة في ابتغاء الجمال، ولم يلههم طلاب العيش عن ذلك لكانوا وضعوا عليه المطاعم والمشارب، ولكني لاحظت أن المقاهي عندهم قليلة بل تكاد تكون نادرة بالشكل التي توجد عليه في باريس أو في البلدان العربية.

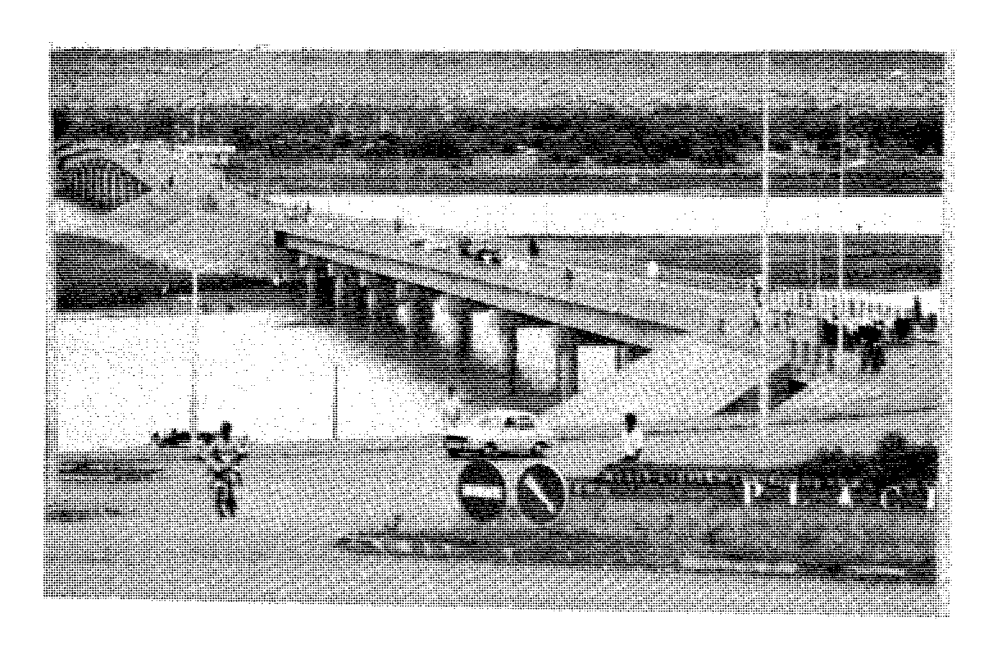
ثم عدنا ماشين على الجسر جسر (كندي) الذي عليه رصيفان للمشاة يلاصقهما تماماً مسير الإبل فهي قد عودها أصحابها ألا تتوسط الجسر لأنه مخصص للسيارات الذاهبة والآيبة، وليس فيه فراغ كبير لغير ذلك. ولم أرَ أحداً منهم راكباً على بعيره فوق الجسر ربما لكونها مخصصة للحمل.

وأعداد السيارات هنا متوسطة فليست كثيرة كما في نيجيريا، ولا هي بالقليلة كما في الهند مثلاً. وهناك معها نسبة من الدراجات الهوائية ومن الدراجات النارية التي يتعين على راكبها أن يضع على رأسه خوذة حديدية وإلا تعرض للعقاب من الشرطة.

والشرطة هنا حازمة إذا أصدرت الحكومة قانوناً أو أمراً فإنها تنفذه بطريقة صارمة وليس كما هو عليه الحال بالنسبة إلى أكثر الدول الإفريقية بل الدول النامية حيث تسن الحكومات القوانين وتصدر الأوامر ولكنها لا تتابع تنفيذها لأن المسؤولين في الحكومة يكونون في الغالب أول من يخالف القوانين إذا تعارضت مع أهوائهم أو أطماعهم.

وهذا الحزم في الإدارة في النيجر، آتٍ من حزم رئيس الدولة العقيد (حسين كونتشي) أو سينا كونتشي، كما ينطق العامة باسمه وباسم حسين في لغتهم.

فهو رئيس حازم يراقب أعمال الإدارات الحكومية بنفسه، ويفاجىء المسؤولين في الحكومة بزيارات المراقبة حتى أصبح الموظفون كما قيل لنا يتوقعون أن يفاجأهم بزياراته التفقدية في أية ساعة. وما رأيت جسراً على نهر في مكان آخر من العالم تعبره الإبل مع السيارات والدراجات في آنٍ واحد في غير هذه المدينة (نيامي).



جسر كندي على نهر النيجر

ومن الملفت للنظر أن هذا الجسر الطويل رغم مرور سنوات عديدة على إنشائه فإن حاله جيدة وهو يحظى بالعناية والترميم وحتى بالطلاء اللازم، لذلك بقي جيداً يدل على العناية بمرافق البلاد والسهر على المنشآءات العامة على حين أن بعض الدول النامية التي أقيمت فيها مشروعات لم تحافظ على صيانتها وترميمها وربما يكون من أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث في (غانا) القريبة من هذه البلاد فأبنية المطار الدولي فيها في حالة سيئة من عدم العناية والصيانة، وقد لاحظت ذلك عند زيارتي لها وذكرته في كتاب (شهر في غرب إفريقية) وقد انقطعت فيها المياه أثناء زيارتنا مع وجود نهر آخر ليس ببعيد عنها. ولكن عدم العناية بالآلات التي توصل المياه إلى العاصمة هو السبب في ذلك.

وفي تنزانيا أقيم فندق كبير في العاصمة هو (فندق كليمنجارو) وكُيِّف تكييفاً مركزياً غير أن الحر عندما سكنا فيه كان لا يطاق لكون التكييف قد توقف فيه منذ مدة ولم يستطيعوا صيانته واستمرار تشغيله.

ولقد سرتني العناية بالمرافق العامة في هذه البلاد المسلمة إذْ وجدتها بالنسبة إلى البلدان التي تماثلها في ظروفها الإقتصادية والسياسية من غير البلدان الإسلامية هي أحسن عناية، وربما يصح القول بأنها في هذا المجال خير منها إدارة، رغم قلة حملة الشهادات العليا في الإدارة والمهارات التي يمكن الحصول عليها بالبحوث والدراسات.

وإن كان يستثنى من هذه القاعدة بعض الدول مثل ساحل العاج في غرب إفريقية وكينيا في شرقها.

يوم الأحد ١٤٠٢/١٢/٢ هـ:

صباح نيامي:

أزحت ستارة النافذة بعد شروق الشمس بقليل على منظر بديع إذْ تطل غرفتي على حديقة جيدة في الفندق على ضفاف نهر النيجر أو نهر النيل كما سماه أسلافنا العرب.

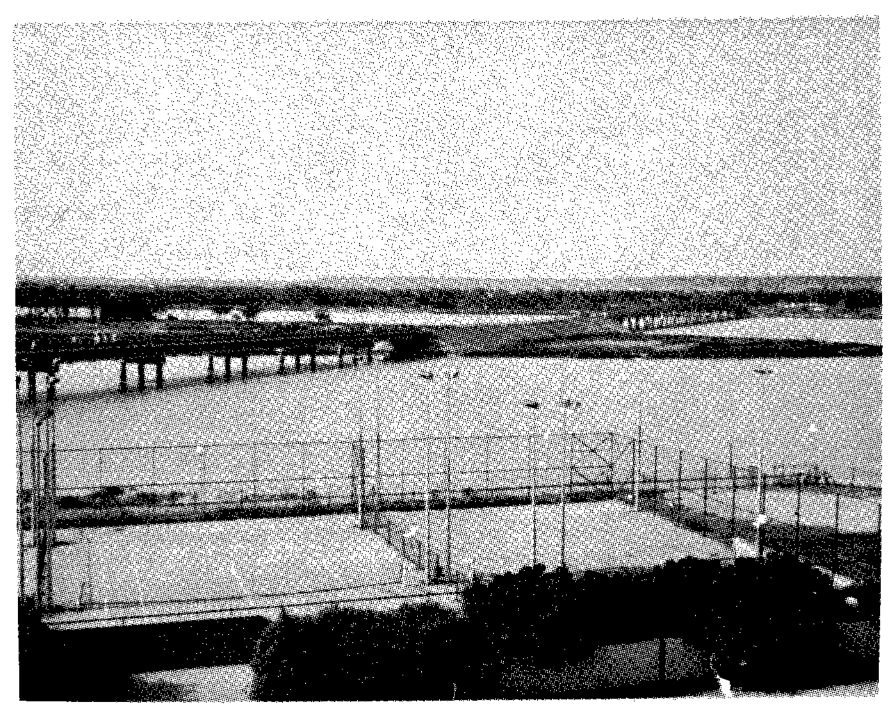
والنيل السوداني هذا كالنيل العربي يجري في أغلب أماكنه أو بعض أماكنه في أراضٍ صحراوية أو شبه صحراوية لذلك يستطيع البصر من نافذة الفندق أن يرى حد الخضرة التي على ضفته اليسرى إذ هناك أماكن صخرية مرتفعة جرداء لأن مياهه لا تصلها مثلها في ذلك مثل أماكن جبلية أخرى في السودان ومصر.

وقد بكر الناس إلى اجتياز الجسر المقام فوقه ولن أسارع بتسميته (جسر كندي) فذلك على صحته ـ يفقد الحديث عنه شاعريته، حتى الإفريقيات اللائي يحملن أمتعتهن فوق رؤوسهن وأطفالهن على ظهورهن قد شاركن في هذا الخليط العجيب فوق هذا الجسر الجيد النظيف في بلاد تقع في منطقة تعد متخلفة في النظافة.

وكان الهواء الذي يأتي من النافذة نسيماً عليلاً قد مسح عنه الليل

بخار شمس النهار المحرقة، ولكنه لم يستطع أن يمسح الغبار الأسود الذي نفضته الشمس على أجساد أهل البلاد على تعاقب القرون.

وقد تصورت هذا النهر العظيم وهو يضن بأسراره على الأولين، ومنهم ابن بطوطة الرحالة العظيم الذي تخيله نيل مصر يجري في صحراء إفريقية أو على حدودها الجنوبية حتى يصل دنقلة، في بلاد السودان العربي أو السودان الشرقي ثم يواصل سيره إلى أسوان في صعيد مصر الأعلى.



جسر كندي على نهر النيجر - (تصوير المؤلف) من غرفته في فندق جاوي في نيامي

ولم يستطع كشف سره في انحناءاته وتموجاته إلا أهل القرون المتأخرة الذين كشفوا أسرار الكثير من بقاع الأرض، ثم ذهبوا يكتشفون أسرار الأقمار فضلاً عن هذا النهر الذي يعرفون أنه لا بد له من قرار.

أتذكر ذلك فلا أكاد أجد عذراً لأسلافنا في تقاعسهم عن سبر أغواره وكشف مساره وإذا كان عذرهم كونه يسير إلى بلاد الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم على حد قولهم، فلماذا لم يكتشفوا مسار نهر النيل الشرقي نيل مصر حتى يعرفوا أن منبعه غير منبع النيل هذا الذي لم يعرف مكان منشئه منهم إلا القليل.

وقد انحدرت من غرفتي التي ملأها هذا النهر العظيم بالرؤى والأحلام إلى غرفة العصر الحاضر غرفة الطعام في هذا الفندق الحديث الذي ليس فيه ما ينتمي إلى هذا النهر أو ما يليه مما يعطيه إلا رسوماً على الجدران لأناس فطس الوجوه، أو أبقار مقوسة القرون. أو طوائف من الطوارق الذين التفوا في ثيابهم ولكنهم لسعتها وتشعب أركانها لم تستطع أيديهم أن تحيط بأطرافها، وقد تلثموا بعمائمهم التي لا تقل سعة عن ثيابهم حتى لم يبقوا في وجوههم إلا عينين سوداوين يمنعهما من أن يكونا خطاً متصلاً بالعمامة الزرقاء جزء من أصل أنف أسمر أصيل.

ومع ذلك فإن تناول طعام الإفطار كان ممتعاً إذْ قدم فيه عمال مهذبون طعاماً وافر الكم، نظيف الكيف، بأجر محدد سواء أكثرت منه أو أقللت هو ألف وخمسمائة من عملتهم وعملة دول غيرهم في غرب إفريقية، وهي الفرنك الإفريقي المربوط بالفرنك الفرنسي بحيث يساوي كل خمسين فرنكاً إفريقياً فرنكاً فرنسياً جديداً واحداً.

أما قيمة الفرنك بريالنا العربي السعودي فإننها تتذبذب بتذبذب قيمة الفرنك الفرنسي وهي الآن تبلغ مائة فرنك إفريقي في الريال الواحد.

في حديقة الحيوان:

يقع المتحف الوطني مقابلاً لفندقنا (أوتيل جاوي) ويشتمل على حديقة حيوان ومتحف.

ذهبت إليه في هذا الصباح مع رفيقي في السفر السفير الدكوري مشياً على الأقدام لقربه، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلاً ولم أكن أضع على

رأسي شيئاً فرأيت جماعة من الطوارق عليهم ملابسهم التقليدية الفضفاضة وبعضهم قد وضع أطرافها على كتفيه وكلهم بعمامة ذات طيات متعددة على رأسه فعرفت أن هذا اللباس الفضفاض هو أصلح الألبسة للصحراء لأنه يقي الشمس والحر في النهار، كما يقي البرد في الليل، على أن نسبة عدد الطوارق من المتفرجين هنا قليلة.

بدأنا بالحديقة لأنها أكبر وأظهر والمتحف في ركن داخلي منها.

فرأينا في الحديقة ضبعاً لا تفتر عن الحركة والدوران في قفصها كأنما هي لم تقطع الأمل في أن تجد منفذاً من خلال هذا القفص المهين.

وهناك ضبع أخرى كبيرة لا تستقر في قفصها أيضاً، وقد أحضر عامل في الحديقة غداء الضبع أكتافاً من لحم الغنم، فجعلت الضبع تسحبها لاستخلاص اللحم منها أيضاً وهي أي الضبع غير مستقرة أيضاً.

كذلك كان من أظهر ما فيه قرود عدة منها الأحمر المائل للسواد أو القرد العربي كما يسميه بعضهم وعدة قرود صغيرة محلية وأخرى بلون السكر إلا ظهورها فبيض.

وهناك أسد إفريقي صحراوي كبير قليل الشعر حتى لبدته خفيفة. ونوع آخر من الأسود مرتفع الظهر ضامر البطن أشهب اللون لم أرَ أسداً من قبل في مثل لونه، وقرود استوائية متعددة ـ ثم سلاحف ضخمة ذات ظهور بلاطية سكرية اللون وتماسيح سود الألوان، وذئاب أصغر حجماً من الذئاب المعروفة في بلادنا وشكلها شكل ذئابنا ما عدا اللون فهو أغمق أو أكثر ميلاً إلى لون الرماد، وقد بدأوا بإطعامها من أسقاط الذبائح أي مما في أجوافها من كبد وطحال ورئات وهي تتنازعها لأنهم جعلوا اثنين منها في قفص واحد.

وكان تنازعها على اللحم وتجاذبها إياه طريفاً لفت أنظار الحاضرين الذين كانوا جموعاً كثيرة لم أتصور كثرتها في هذه البلاد وأمثالها التي يفترض أن السعي في شؤون العيش يلهي كثيراً من أهلها عن ابتغاء التفرج والتماس النظر إلى الطرائف، إلا أنه ربما كان السبب أن اليوم هو يوم

الأحد العطلة الأسبوعية في هذه البلاد، وأكثرهم من ذوي اللون الأسود المعتاد الذي هو لون قبائل الجرما والهوسا وطوائف أخرى من السكان.

وهناك أناس من ذوي اللون الأسود الخفيف ومنهم الفلانية ـ بالنون ـ وجماعات من الطوارق والعرب المتأفرقين فيه وإن كان عددهم ليس كثيراً.

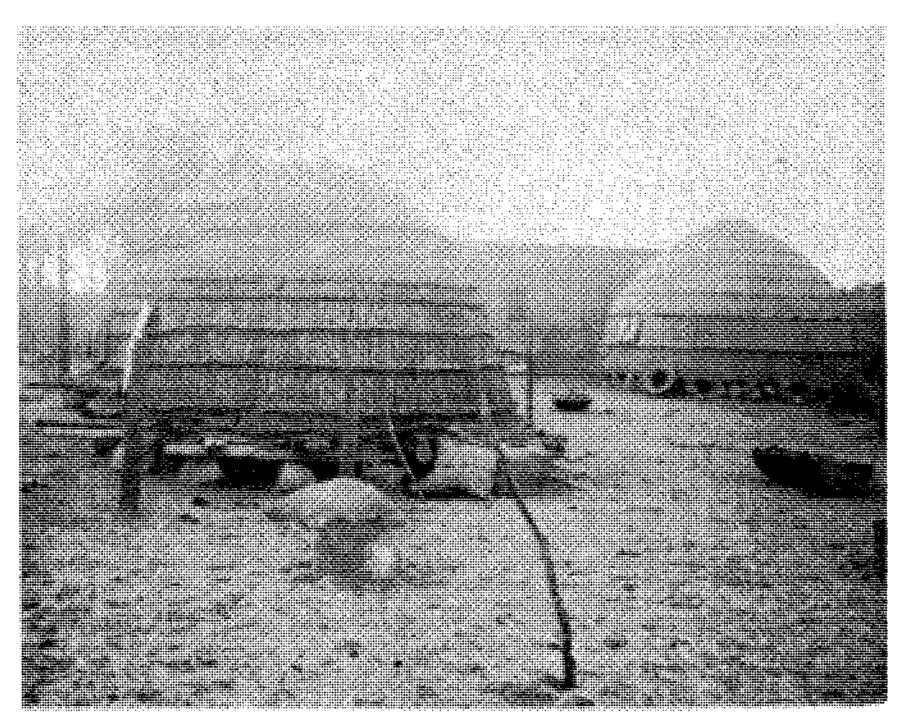
وفي أحد الأقفاص شاهدنا (نيصا) وهو الشيلهم بالعربية الفصحى وهو نوع كبير من القنافذ ذو شوك حاد الأطراف يرمي به من يهاجمه يدافع بذلك عن نفسه. ولا يكاد يختلف هذا النيص الإفريقي عن النيص الذي نعرفه في القصيم في الجزيرة العربية بشيء.

وهناك قسم صغير للطيور عرضوا فيه طيوراً غريبة، كما رأيت الناس يتهافتون على رؤية فرس النهر في بركة عميقة. وهو الذي سماه ابن بطوطة (خيل النهر) وقال: إنه رآه في نهر النيجر هذا الذي يمر بنيامي ويسميه هو (نهر النيل).

مشاهد من البيئة:

في هذه الحديقة الواسعة التي هي حديقة حيوان ومتحف في آن واحد أقاموا نماذج تمثل بيئتهم القديمة، من ذلك مجموعة من البيوت الشائعة عندهم ولا زالت موجودة حتى الآن في البوادي والقرى وقد شاهدتها في شمال نيجيريا للفلانيين بالنون الذين نقول لهم في الحجاز الفلاتة بالتاء. ومنها عدة غرف على هيئة أكواخ هرمية الشكل جدرانها من الطين وأسقفها على شكل المحقن المقلوب أو كالمظلة الواقفة. وقد دار حولها سور من أعواد الأشجار، وتكون هذه البيوت للرجل وزوجاته وأسرته إذا كان كبير القدر أو زعيماً لقبيلته، ومن مظاهر ذلك تعدد الزوجات وكثرة الأولاد.

وهذه البيوت تكون للهوسا أو الحوس كما كان يسميهم مؤرخو هذه المنطقة، وهناك أنموذج آخر لمنزل من الخشب والقش مرفوع عن الأرض اتقاء للرطوبة، أو للهوام.

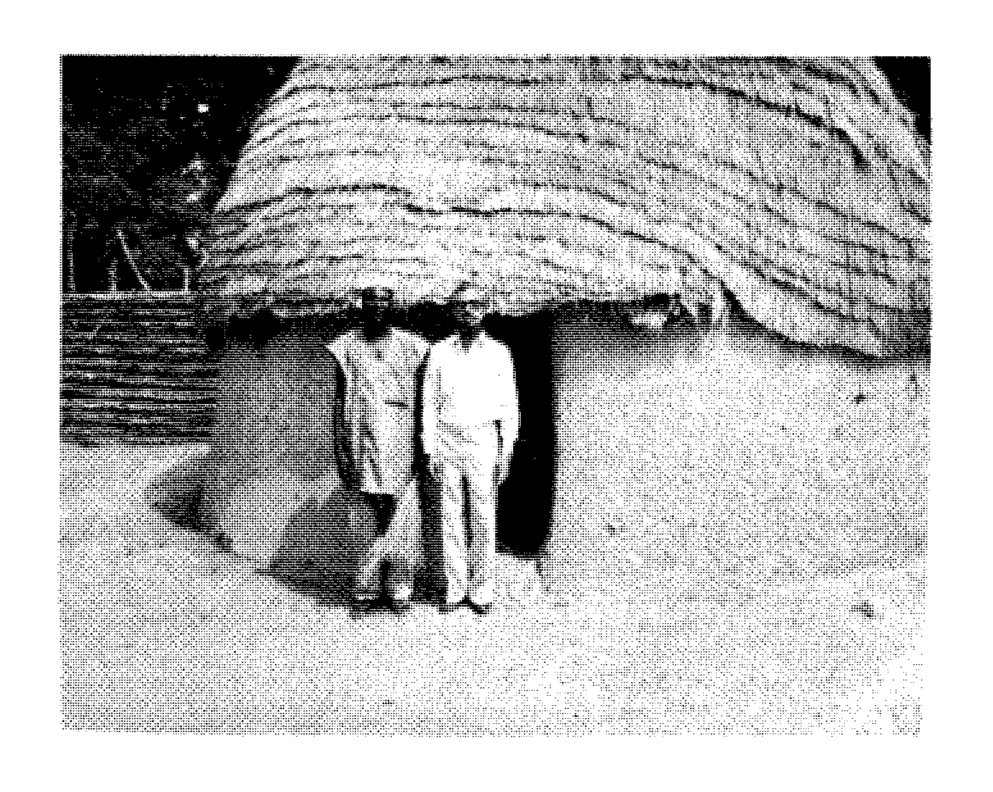


انموذج لبيوت الفلانيين في الحديقة

ورغم كون هذا المنزل من غرفة واحدة لا تعتبر واسعة فإننا لاحظنا أن في داخلها مكاناً مرتفعاً فوق قامة الرجل مكوناً من أخشاب قوية معترضة، ذكر لنا دليل في المتحف اسمه (باكوي) مسلم من (مرادي) بلد في النيجر وهو من قبيلة الهوسا. أنه يستعمل لغرض الأمن من هجوم السباع وحتى الأعداء من الناس.

وهذا نموذج على منازل الحوس أو (الهوسا) كما هو الإسم الشائع لهم الآن.

ومن أهم النماذج لتلك المساكن منزل كبير نسبياً وهو مثل باقي المنازل من غرفة واحدة إلا أن له بابين متقابلين وفي داخله بناء من الطين شبيه بالكرسي المرتفع الواسع الذي له يدان من الطين أيضاً يضع الجالس فيه يديه عليهما، وقد فرشوه بحصير ضافٍ وقالوا: إنه مجلس شيخ القبيلة

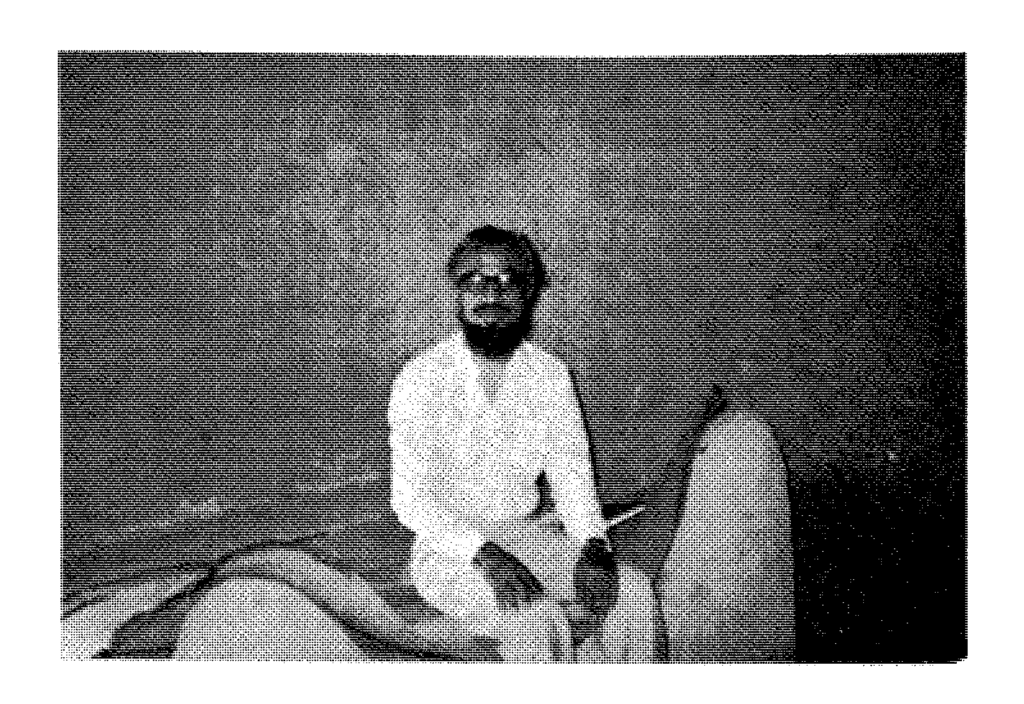


أمام بيت الهوسا في متحف نيامي مع الدليل

يجلس فوق هذا الكرسي من الطين مرتفعاً عن سائر القوم الذين يكونون جالسين على الأرض.

ومن ألطف ما عملوه أنهم أقاموا في هذا المتحف سوقاً حقيقية من مواد كانت تستعمل في القديم ولم يدخلوا عليها غيرها وهي الطين والأخشاب والقش.

وجعلوا في داخل هذه السوق أرباب المهن والصناعات اليدوية القديمة وهم يعملون بجد وجهد من الحدادين إلى النجارين إلى الخبازين وصانعي الفخار وهم جميعاً لا يستعملون إلا الأدوات التي كانت تستعمل في



داخل منزل شيخ القبيلة والمؤلف على كرسيه في حديقة متحف نيامي

القديم فكأن الذي يشاهدهم ويشاهد أدواتهم من كير الحداد ومطرقته وسندانه إلى مخرز الخراز إلى غير ذلك يكون قد عاد به التاريخ إلى الوراء زمناً طويلاً.

والغريب أنهم رغم كثرة ما ينتجون نسبياً من السلع فإن المسؤولين عن المتحف ذكروا أنها تشترى منهم بعضها حال صناعتها وبعضها من حانوت مجاور لهم مقام أيضاً على طريقة قديمة.

ويلفت النظر ملابس هؤلاء الصناع، فكبار السن منهم يلبسون قميصاً أقصر من القميص العربي المعتاد فهو يقف عند الركبة. وليس عليهم غيره،

وأما الشبان فإنهم ليس عليهم إلا سراويل قصيرة فقط، وذلك لشدة الحر وبخاصة للذين ينهمكون في العمل.

ومما يلفت النظر من الأشياء التي يصنعونها نعال من الجلد حمراء فاقعة اللون وأدوات من السعف وأعواد الأشجار من قفاف مصبوغة ملونة وأوعية من القش تشبه الصحون وأوانٍ كبيرة من القرع الذي هو نوع معين عندهم لا يصلح للأكل وإنما يصلح إذا ترك حتى يصلب قشره لاتخاذ الأواني الكبيرة والصغيرة منه لا يستعملونه إلا لهذا الأمر. وقد زينوا خارجها بنقوش متعددة أكثرها بالكي بالنار فتكون كيات النار على ظهر القرعة التي هي خفيفة الحمل لأنها مجرد قشر سميك كنقوش الحناء الذي تضعه النساء على ايديهن للتجميل.

وقد خرجنا من هذه الحديقة على أمل العودة لمشاهدة المتحف وأنا مسرور لما شاهدته في الحديقة من عناية ونظافة واهتمام، ولما لاحظته من كثرة الزوار من المواطنين إذ يدل ذلك على حبهم للمعرفة مما يحملهم على المزيد من طلب المعرفة إذا تيسرت لهم الشروط وذلك يوصلهم للمزيد من العلم والتقدم.

ثم تناولنا الشاي في هواء طلق في حديقة الفندق التي في أحد طرفيها مقهاة ومشرب، وفي الطرف الآخر بركة للسباحة لم أرَ الذين يسبحون فيها إلا من الأوروبيين مع أنها في مكان جميل يقع على ضفة النهر مباشرة.

وعندما أعطيت العامل حلواناً (بقشيشاً) قليلاً هو مائة فرنك أي ريالاً سعودياً واحداً شكرني وانحنى بالتحية، وهذا من الفروق ما بينهم وبين جيرانهم النجيريين الذين يشتركون معهم في التسمية الأوروبية لبلادهم نيجيريا، فكلاهما منسوب إلى نهر النيجر ولكنهم يختلفون عنهم في الأخلاق والأعراق فضلاً عن التفاوت فيما بينهم في الأرزاق.

ففي الفنادق الكبيرة في نجيريا وبخاصة في (لاغوس) إذا أعطيت الخادم نيرة نيجيرية واحدة وكانت بصرف الفندق تساوي حوالي دولارين أي

سبعمائة فرنك إفريقي غربي فإنه لا يشكر لك بل ربما يزم شفتيه احتقاراً للذي يسميه الرجل الأبيض الذي لا يستحق أن يخدمه مع أنه يخدمه في مقابل أجر وليس تبرعاً منه.

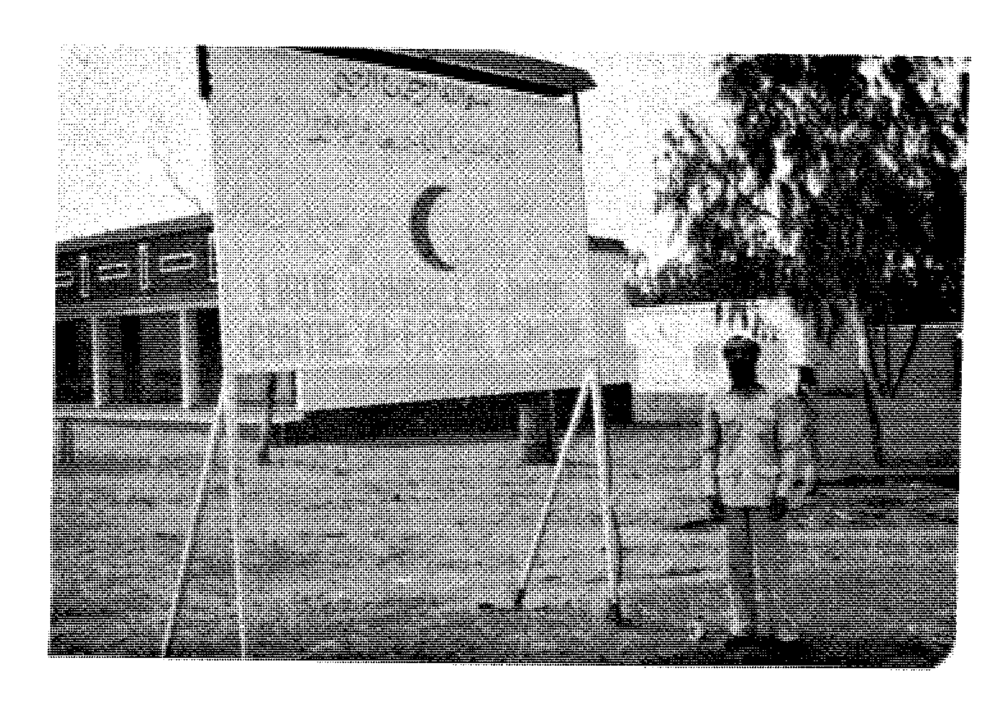
وعند الظهر كان الغداء في مطعم الفندق النظيف وهو جيد إلا أنه كله مستورد ما عدا لحم الغنم الذي هو أيضاً من المخزون في ثلاجة الفندق، وإن كان من غنم هذه البلاد. وبلغت قيمة الوجبة الجيدة خمسة آلاف فرنك أي خمسين ريالاً سعودياً. والمطعم أيضاً كالمقهى والبركة في كون جميع الذين رأيتهم يأكلون فيه ممن يسمون البيض أي من الأجانب.

وقد اشتد الحر في وسط النهار خلاف ما كان عليه في المساء والصباح وأصبحنا نشعر بأننا في وقت القايلة أي شدة الحر في الظهيرة، فهذه البلاد في هذا الأمر شبيهة ببلادنا في الصيف لأنها وإن اختلف بعد موقعها من خط الإستواء عن بعد موقع بلادنا منه فإنها بلاد صحراوية أو شبيهة بالصحراوية لولا وجود نهر النيجر الذي هو لها بمثابة نهر النيل بالنسبة لمصر، وإن كانت لا تنتفع منه بالقدر الذي ينتفع أهل مصر من النيل، وإنما يذهب جزء كبير من مياهه ليصب في البحر المحيط في خليج بنين من أراضي غربي نيجيريا. ومع هذا الحر في القايلة وكون الشمس لا تكاد تطاق فإن الأجانب من الأوروبيين لا يزالون مع أسرهم يسبحون في البركة أو يستلقون تحت أشعة الشمس المحرقة التي لا نطيق نحن حتى الوقوف فيها.

ولا شك أن غرضهم من ذلك أن تسمرَّ أجسادهم وأن تختزن من أشعة الشمس ما يكفيها مؤونة لأيام الحرمان من الشمس في شتائهم المظلم الطويل.

إلى مركز الملك فيصل:

ذهبنا في الساعة الخامسة لزيارة مركز الملك فيصل في نيامي الذي أنشأته رابطة العالم الإسلامي ومن مهمتنا في النيجر أن نتفقده ونطلع على ما يقوم به ونقترح ما نراه لزيادة الإستفادة منه.

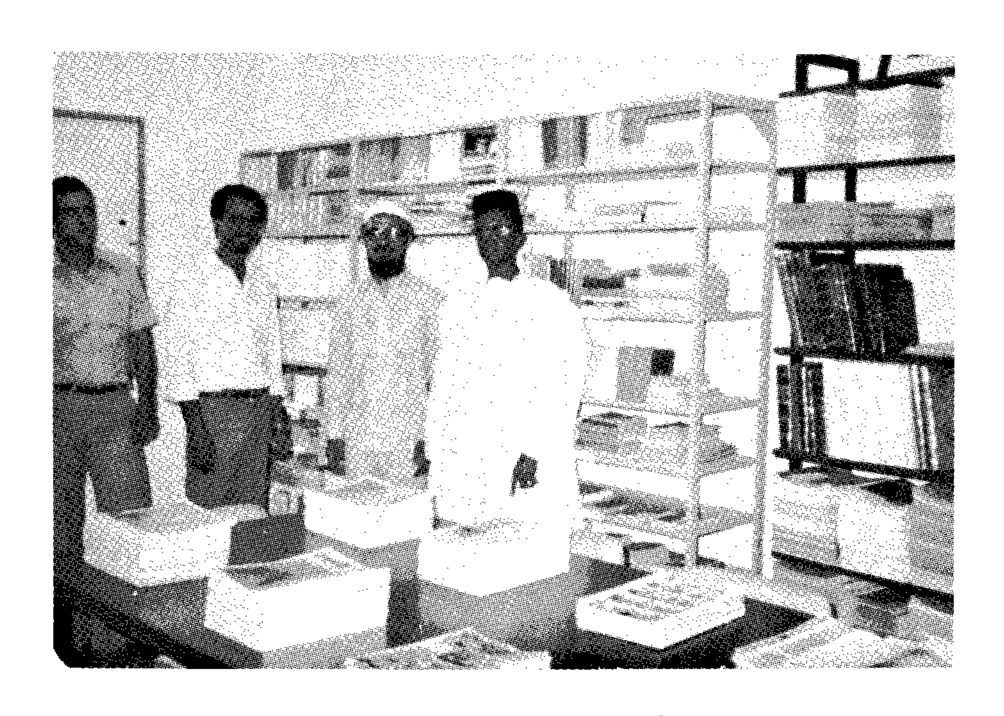


أمام مركز الفيصل في حي لاموردي في مدينة نيامي. . المؤلف بجانب اللافتة وخلفها يبدو المركز

صحبنا في الزيارة الأخ الدكتور (كمال الوسيني) مدير المركز وهو طبيب مغربي تعاقدت معه الرابطة للعمل في نيامي والشيخ محمود موسى التشادي من العاملين في المركز ومسؤول عن المكتبة فيه. ويقع على الضفة الجنوبية من النهر في حي اسمه (مردي) ومعناها باللغة الفلانية مكان السلطة وتقع فيه جامعة نيامي.

أول ما دخلناه من المركز المكتبة العامة وهي جيدة حافلة بالكتب العربية والفرنسية ذكروا لنا أنه يراجعها عدد كبير من أساتذة الجامعة وطلابها لقربها من الجامعة، غير أننا لم نـرَ منهم أحداً بسبب العطلة الأسبوعية والصيفية كما ذكروا.

ثم إلى عيادة الطبيب الدكتور الوسيني فوجدناه سجل عدد المراجعين



داخل مكتبة مركز الفيصل في نيامي من اليمين الشيخ الذكوري فالمؤلف فالدكتور كمال الدسيني فأحد الأخوة المغاربة

في يوم واحد مائتين وعشرة أشخاص كلهم قد كشف عليهم وأعطاهم الدواء وهذا رقم كبير بطبيعة الحال غير أن عمله هو الكشف وإعطاء الدواء وليس العلاج والتمريض الذي يكون في المستشفيات لا في المستوصفات.

وسألته عن أكثر الأمراض التي شاهدها في هذه المدينة؟

فأجاب: إنها الملاريا وذكر أن حوالي عشرين من المراجعين في الأسبوع يشكون من الملاريا.

فسألته: يقال إن الأمراض السرية في إفريقية منتشرة فنفى ذلك عن مراجعيه وقال: إن عدد المصابين بها من الذين يراجعون قليل جداً لا يتعدى واحداً من مائة.

والمركز واسع قدمت حكومة النيجر أرضه إلى الرابطة التي قامت

بالبناء عليه وتريد أن تزيد في البناء مسجداً جامعاً لأن المنطقة محتاجة إلى مسجد إضافة إلى توسعة المستوصف الذي شهد إقبالاً كبيراً بسبب النقص في المستوصفات وبسبب الأدوية التي يصرفها مجاناً للمراجعين.

وفي جولة في فنائه كان مما يلفت النظر بئر مغطاة بغطاء حديدي قالوا: إنهم كانوا يأخذون منها الماء قبل أن تصلهم أنابيب المياه وهي عميقة رغم أن النهر منها ليس ببعيد وربما كان السبب في بعض ذلك كون هذه الضفة من النهر مرتفعة كثيراً عن مجراه.

وقد عرفت من هذا بعض الأسباب التي جعلت تأثير الجفاف ونقص الأمطار شديداً على أهل هذه البلاد وهو بعد المياه الجوفية عن سطح الأرض في أكثر الأماكن وقلة وجود الآليات التي تستطيع حفر الآبار العميقة وارتفاع أثمانها.

وفي الفناء أيضاً مما يلفت النظر شجرة عالية من أشجار الدوم التي توجد غالباً في وديان المناطق المرتفعة من المملكة وهي من الأشجار الغريبة التي تتفرع في أعلاها فروع متعددة على هيئة أشجار صغيرة نابتة من الشجرة الرئيسية. وثمرها المقل في داخله شيء حلو شبيه بالليف تأكله الناس أيام المجاعات.

وقد تسمى شجرة المقلة لأن ثمرها يسمى المقل، والشجرة على صورة ليست بعيدة من صورة النخلة عندنا لذلك روت العامة في أساطيرها: أن أحد المشايخ الصالحين مر بأهل حائط من النخل، فسألهم شيئاً من التمر يسد به جوعه، فجحدوا التمر، وقالوا: هذا ليس نخلاً ولكنه شجر آخر ليس فيه تمر فدعا عليهم إن كان الأمر غير ذلك أن يحرموا منه.

قالوا: فانقلب نخلهم إلى (دوم) وهو الذي تشبه شجرته النخلة ولكن ليس فيها تمر، وإنما ثمرتها مكورة صلبة في قدر البيضة مرتين.

ولئن لم تكن هذه القصة صحيحة، وهي كذلك، فإن الصحيح أن (الدوم) نبات صحراوي يعيش في الوديان من الأماكن المرتفعة التي لا شك

أنها كانت في الأزمان السحيقة الممطرة ذات أشجار مثمرة يانعة ـ فحل محلها (الدوم) بسبب الجدب وقلة المطر، وليس بسبب دعاء الشيخ المذكوره في الأسطورة.

وليس في الحديقة شجر مثمر رغم كون الجوافا والليمون تجود في المنطقة، وقد سألتهم عن كونهم لم يغرسوا أشجاراً يستفيدون من ظلها وثمرها فقالوا إنهم ينتظرون أن يتموا سور الفناء لأنه لا يزال معرضاً للأغنام والحيوانات السائبة.

كان هذا الصباح معتدلاً وكان الظهر حاراً جداً، وأما في الليل فإنه كان ربيعاً منعشاً والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة الجو الصحراوي ووجود سحائب أخذت تجود هذه الأرض المحتاجة إليها بوابل من الأمطار التي كانت مصحوبة بنسمات حانية منعشة.

وعندما وقف نزول المطر كان الجو يغري بالمسير فركبنا سيارة أجرة أنا ورفيقي السفير الدكوري من الفندق إلى داخل البلد وقلنا له: إننا نريد مطعماً شعبياً نظيفاً إذا كان يعرف ذلك.

فأجاب: إنه لا يعرف إلا المطاعم التي يأكل فيها السائقون ولا يظن أنها تناسبنا فذهب بنا إلى فندق للمواطنين نظيف تناولنا العشاء فيه.

ولما عاد السائق بعد ساعة ليوصلنا إلى الفندق حسب اتفاق معه ولاحظ أنه ليس معنا أحد وقد أمرناه أن يعود إلى الفندق فقال مستفسراً عندما لم يرَ معنا أحداً: إنني أعرف أنكم ستخرجون من هذا المطعم وحدكم لأن الرئيس حسين كونتشي قد منع الرفيقات من دخول الفنادق إذا كن وحدهن ولذلك أصبحت الفنادق خالية منهن، وقال الرئيس: إننا بلد إسلامي لا يمكن أن نقر مثل هذا المنكر.

فسررنا بما ذكره وأفهمناه أننا لا نبحث عن مثل ذلك، بل نحاربه،

فقال: كنت أظنكم كالسائحين الآخرين وهذه يد بيضـاء انفرد بها الرئيس حسين كونتشي دون غيره من حكام البلدان المجاورة الذين تركوا الحبل على الغارب بعد رحيل المستعمرين الفرنسيين عن بلادهم اتباعاً للشهوات أو تقليداً أعمى لأولئك المستعمرين.

يوم الإثنين ١٤٠٢/١٢/٣ هـ:

مع مستشار رئيس الجمهورية:

كان أول الإتصال بالشخصيات الرسمية هذا اليوم مع الشيخ عمر جالو مستشار رئيس الجمهورية. وهو شخص معروف في بلادنا إذا شغل منصب سفير جمهورية النيجر في جدة مدة تزيد على خمس عشرة سنة كما أنه عضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. وهو يعرفنا جميعاً بل هو زميل لرفيقي السفير الدكوري وكان لقاؤه مفيداً لنا في الإطلاع على ما نريد الاطلاع عليه من هذه البلاد، غير أنه أكثر من اللوم والتقريع لكون حكومة النيجر لم تعلم بموعد وصولنا وقال: إنه كان ينبغي أن تكون الحكومة قد استقبلتكم وأجرت الإتصالات معكم.

فأخبرته بمهمتنا وقلت له: إنها كانت عاجلة وإن رابطة العلم الإسلامي ذكرت أنها قد كتبت في ذلك غير أنه وافق العطلة الإسبوعية. وعدم استقبالنا في المطار لا نعتبره ذا أهمية، ولا يؤثر في عملنا والمهم لنا أن نرى المؤسسات الإسلامية والمساجد ونجتمع بالعاملين فيها وذلك أمر في تقديرنا لا يحتاج إلى اتصالات حكومية سابقة.

ثم اتفقنا معه على ما ينبغي عمله في هذا الموضوع.

جولة في مدينة نيامي:

ذهبنا إلى عدة أماكن في الأقسام الحديثة من مدينة نيامي على سيارة للسفارة السعودية مكيفة الهواء حيث ذهبنا إلى مكتب شركة الطيران الإفريقي مع شوارع واسعة، وأبنية جيدة. وكان الزحام فيها على أشده وتجلى الشعب بعامته شعباً إفريقياً أو على الأدق شعباً سودانياً بأكثرية أفراده ولكنه ليس من جنس البانتو أو من يسمون الزنوج من سكان خط الإستواء إلا ما كان من نسبة ضئيلة تظهر عليهم ملامح أولئك القوم ربما كان ذلك من كونهم قد جاءت أصولهم من تلك الجهة لكونهم أرقاء، أو لغير ذلك.

والشيء الذي فوجئت به أنني لم أرَ هنا من الطوارق إلا أعداداً قليلة هي أقل بكثير مما نعرفه عن نسبتهم في جمهورية النيجر.

وطبيعي أن لا تكون لهم أكثرية في العاصمة لأنهم يسكنون في المناطق الصحراوية في الأكثر ولكن من الطبيعي أيضاً أن توجد في العاصمة نسبة معينة من سكان المناطق المختلفة ـ لا سيما في هذه البلاد التي عانت المناطق شبه الصحراوية فضلاً عن الصحراوية فيها من شح المطر ونضوب مياه الآبار مما ترتب عليه هجرة طائفة من السكان الذين هلكت مواشيهم أو يبست زروعهم إلى العاصمة.

ومن العادات الإفريقية التي رأيتها اليوم بكثرة عادة حمل النساء أطفالهن على ظهورهن بأقمشة محزومة وسط البدن والظهر.

وكنت أرتدي الملابس العربية فلفتت إليّ أنظار الشحاذين الذين كانوا والحق يقال قلة في هذه البلاد الفقيرة التي كانت قد نكبت بالقحط والجفاف.

والنساء اللاتي رأيتهن تزدحم بهن الشوارع يغلب عليهن الإحتشام في اللباس إلا أن الحجاب المعروف في بلادنا غير موجود أصلاً وتلبس الكبيرات في السن الرداء الملفوف على الجسم وأما الصغيرات فإنه القميص الواحد الطويل نوعاً ما أو فوطة إلى البطن فوقها صدري وكثيرات

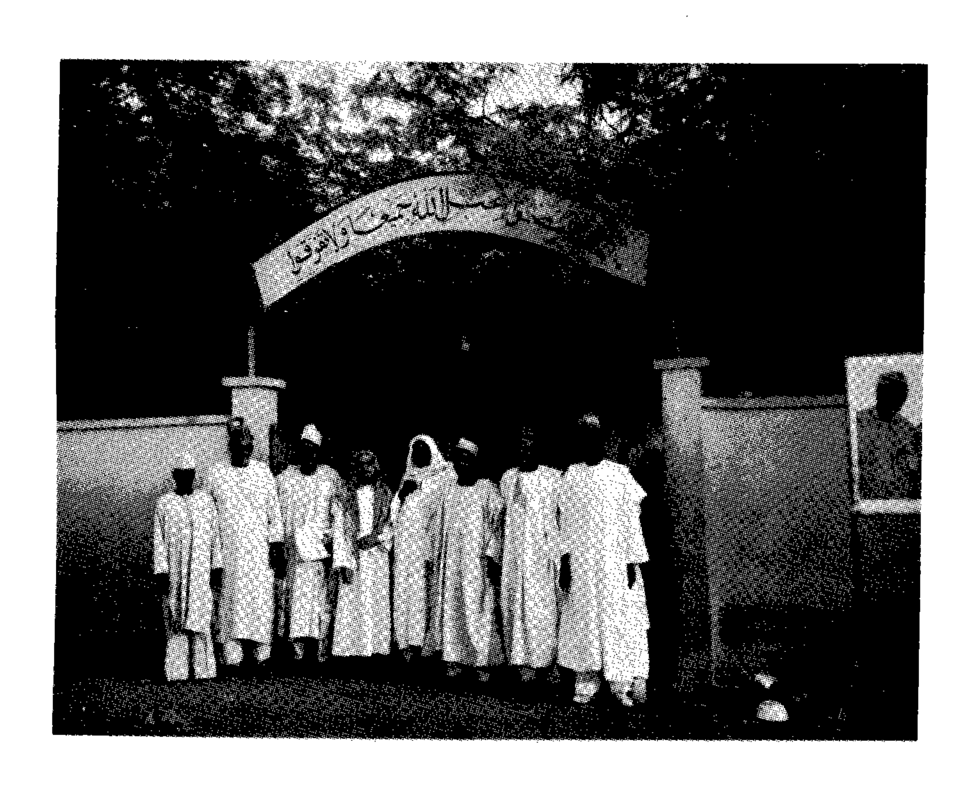
منهن يغطين رؤوسهن ولو بمنديل صغير، والطواقي أو القلانس موجودة على رؤوس الرجال وإن لم يكن هذا قاعدة عامة لأنها تتخذ شعاراً للمسلمين في بعض بلاد الأقليات المسلمة، أما في هذه البلاد التي أغلبية سكانها الساحقة من المسلمين فإنه لا داعي للبس شيء يميز المسلم عن غيره ولكنها هنا تقي الرأس من الشمس الحارة في هذه البلاد، وكثيراً ما يصاحب الطاقية قميص وطني أوسع من العربي قليلاً وأقصر منه.

ثم مررنا بالسفارة السعودية حيث اجتمعنا مع الأستاذ ماجد بن عبد العزيز الدايل القائم بالأعمال وبحثنا معه بعض الأمور المتعلقة بما نريد الإطلاع عليه فذكر ما عرفناه من أن الجمعية الإسلامية الوحيدة المعترف بها من الدولة هي التي تستطيع أن تتحدث رسمياً باسم المسؤولين عن الدعوة الإسلامية في هذه البلاد كما أنها هي التي تشرف على شؤون المساجد فيها.

إلى الجمعية الإسلامية:

ذهبنا لزيارة الجمعية الإسلامية النيجرية في مقرها العام في قلب المدينة، فاستقبلنا عند مدخلها الشيخ عمر إسماعيل رئيس الجمعية بلسان عربي مبين أخذ ما أخذ منه عن العراق حيث تعلم هناك وهو من الفولانيين، والشيخ القاسم البيهقي وقد تعلم في الأزهر في مصر وهو من الطوارق، وعدد من العاملين في الجمعية وقد بحثنا معهم في جلسة خاصة حضرها السفير عمر جالو الأمور التي نهتم بها جميعاً وهي وضع المساجد والنظر في إنشاء مجلس محلي للائمة في هذه البلاد كما أخبرونا بما يريدون أن يقولوه عن هذه الموضوعات غير أنهم لم يتقدموا بطلب المساعدة ولم يعرضوا بذلك ولا تعريضاً، بل كانوا متحفظين في هذه الأمور وربما كان السبب في ذلك كونهم لم يحصلوا على إذن من حكومتهم بما ينبغي أن يتقدموا به أو لكونهم سبق أن تقدموا للبلاد العربية بأشياء ولم يستطيعوا الحصول على نتيجة. وعلى أية حال فقد كانت جلسة مفيدة لنا.

وقد تجولنا في مقر الجمعية وكان من أهم ما فيه المكتبة وهي حافلة



المؤلف مع أعضاء الجمعية الإسلامية عند مدخل الجامع القديم في نيامي حيث يوجد مكتب الجمعية

بالكتب القيمة التي أكثرها بالعربية ومنها قليل بالفرنسية وفي فناء المبنى المكشوف أشجار من النيم تحتها حصر مفروشة قد استرخى عليها طائفة من كبار السن، والتقطنا صوراً تذكارية معهم أمام المكتبة، وكنت أتهيأ لأخذ الصورة وأنا أرى من نافذة المكتبة التي تطل على الشارع امرأتين من المواطنات تتناوبان الهرس في مهراس (منحاز) من الخشب وهما واقفتان وفي الشارع نسوة أخريات يعملن في الشارع أيضاً مما يذكر بالعادات الأفريقية الأصيلة التي لا تلقى بالاً للتستر، أو التخفي بشيء عن الآخرين إما لعادات اعتادوها أو لضيق في بيوتهم عن أن تستوعب كل ما يحتاجون إليه من أعمال.

سوق شعبي:

وبعد ذلك أخذنا في إكمال الجولة في المدينة مع الأخ الأستاذ

البيهقي وهو ذكي سريع الفهم والإفهام لذلك وجدت فائدة كبيرة من صحبته.

مررنا بسوق نيامي القديم وقد احترق هذا العام وهم الآن ينشؤن بديلاً عنه ويستعملون سوقاً تحت الأشجار دخلناه وكنت أتوقع أن أجد فيه عششاً وأكواخاً من القش كما في أكثر البلدان الإفريقية غير أنني لم أرَ مثل ذلك فيه ولا في داخل المدينة الرئيسية إذ الحكومة قد هدمت تلك البيوت من القش بحيث أصبحت لا توجد إلا في أطرافها على قلة.

وفي هذا السوق الشعبي خضرات وفواكه إلا أنها كلها شحيحة ليست رخيصة وبعضها شبيه بما هو عندنا. من ذلك اللوبياء ويبيعون الكيلو الواحد بأربعة ريالات، وخس غير جيد، وبرتقال أملس أخضر اللون كما يكون في المناطق الإستوائية.

وأما الطماطم فإنها تباع في هذه السوق الشعبية بالعدد أو الكومة الصغيرة، ومن ذلك ثلاث حبات متوسطة ذكر البائع أن ثمنها مائتا فرنك أي ريالان، وفاكهة (القريب فروت) الحمضية الواحدة بمائة أي ريال واحد، وهناك أشياء مألوفة مستوردة مثل نوع من التمر مستورد من الجزائر يشبه تمر (الصقعي) الذي يصدره العراق، وبطاطس مستوردة من نيجيريا. وفاكهة (أفوكاتو) التي يوضع عليها الخل أو الملح فتؤكل قبل الطعام بمثابة المقبلات أو يوضع عليها السكر فتؤكل بعد الطعام كما تؤكل الحلوى. وهي مستوردة من ساحل العاج.

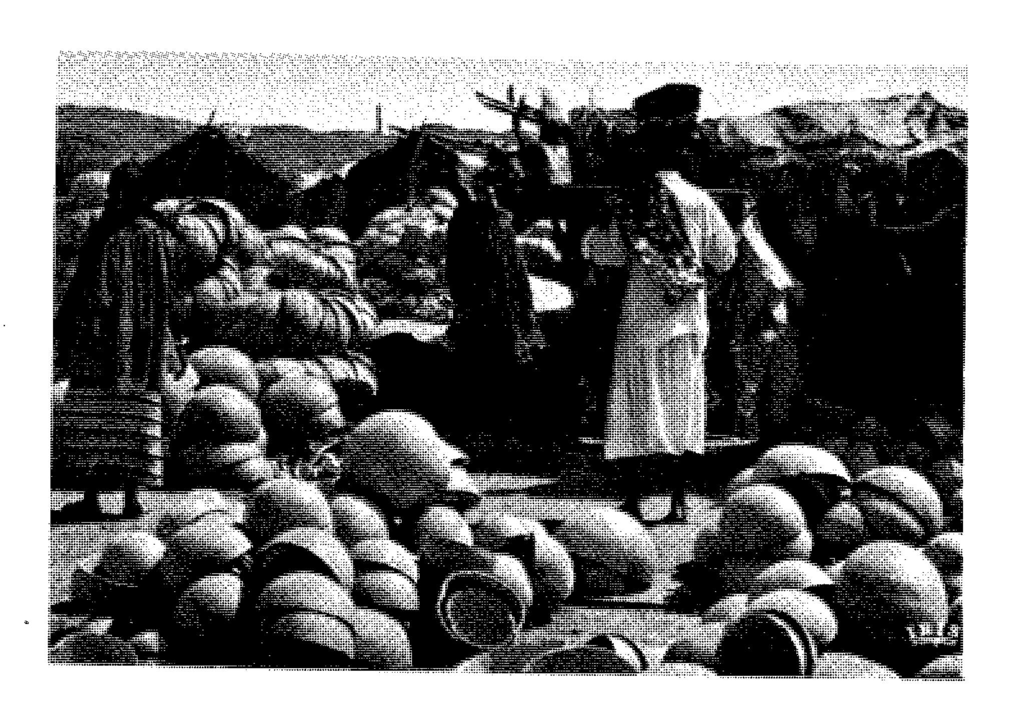
ومن الأشياء المحلية زيت الفول السوداني يستعمل في الطبخ وباذنجان أسود ونوع غير جيد من الخيار.

وأهم الملاحظات لما يميز هذا السوق عن مثيلاته من الأسواق الشعبية الإفريقية أن البائعين فيه كلهم من الرجال إلا قليلاً على حين أن العادة أن النساء هن اللائي يبعن في الأسواق الإفريقية الصغيرة. كما أن البضائع والخضروات فيه ليست كثيرة.

ومن الفروق أيضاً أن الموز الذي يكون في العادة هو السلعة الظاهرة في الأسواق الإفريقية الإستوائية هو موجود هنا بقلة وهو مستورد.

كانت الشمس حارة وكان هذا أمراً متوقعاً غير أنه كلما ارتفع النهار زادت شدة الحرارة ولذلك قال لنا مرافقونا إنه لا بد عندنا في العادة من القيلولة في نصف النهار فقلت لهم: وهذا هو ما كنا نفعله نحن في بلادنا في القديم قبل وجود التكييف في المكاتب والسيارات.

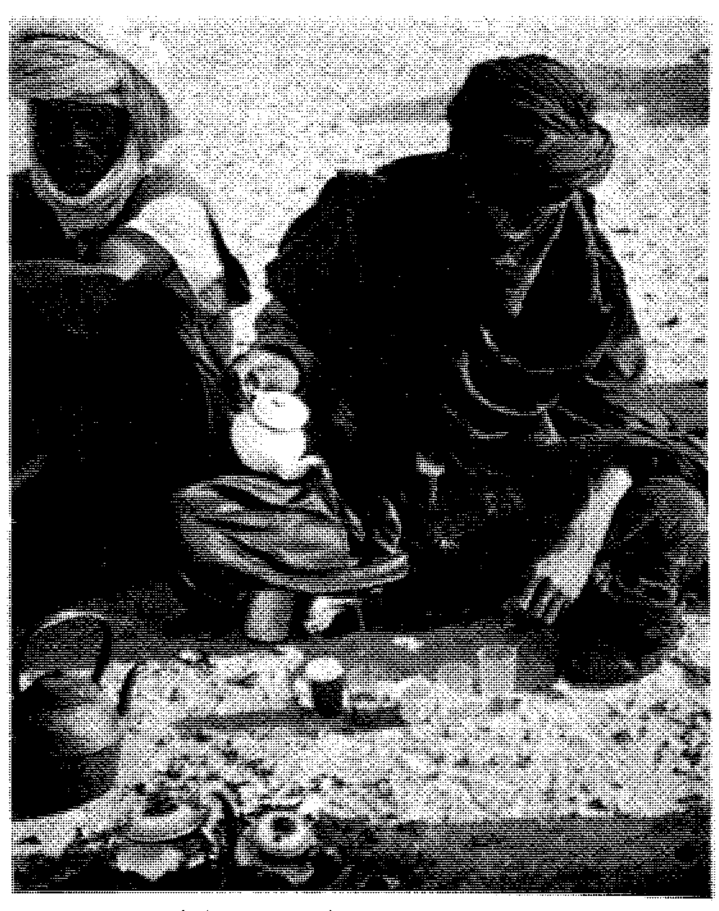
وقد مررنا في طريق العودة إلى الفندق بأكوام من الأواني الفخارية المصنوعة محلياً وهم يستعملونها بكثرة وخاصة في القرى والأرياف. وهي رخيصة الثمن وبسيطة الصنعة وكذلك آنية القرع.



آنية القرى معروضة للبيع في سوق نيامي

المسجد الجامع الكبير:

بعد أن أدبرت الشمس وانكسرت حدة الحر خرجنا في الساعة الخامسة عصراً بصحبة الأخ الأستاذ قاسم البيهقي الأمين العام للجمعية الإسلامية في جولة على الأماكن الشعبية وزيارة لبعض المساجد، فكان أول ذلك زيارة الجامع الكبير وهو كإسمه كبير حقاً تحيط به من جهات ثلاث مساحة واسعة مغروسة بأشجار النيم الوارفة الظلال وذلك لأن القسم المسقوف من المسجد صغير بالنسبة إلى عدد المصلين لذلك كان العدد الأكبر منهم يصلون في هذه الساحات الظليلة من الأفنية المكشوفة.

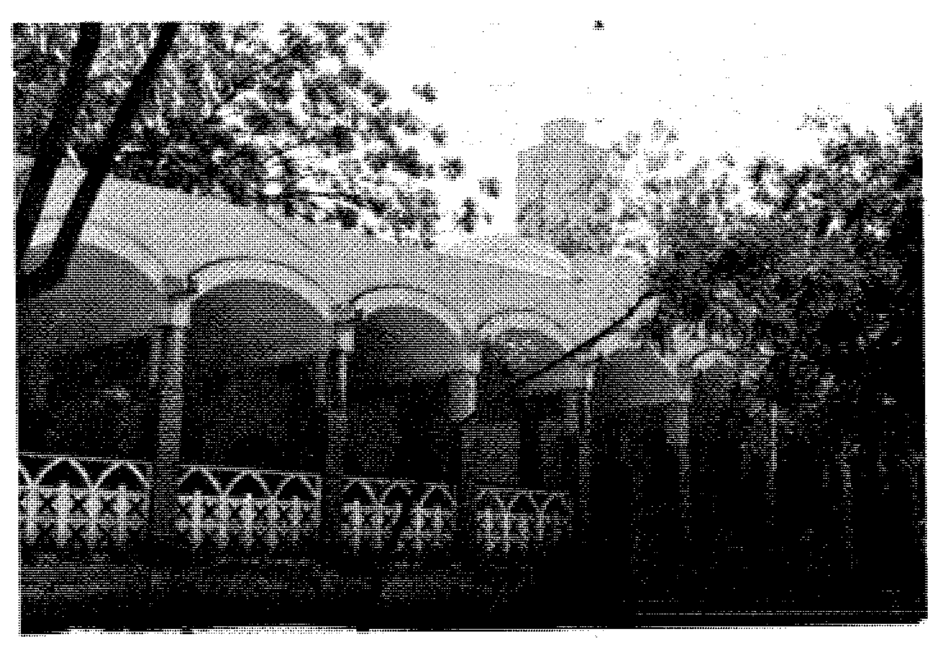


بدويان يصنعان الشاي في منطقة خالية من نيامي

وقد فرش قسم قليل بالحصر المصنوعة في البلاد وعليها طائفة من الناس في هذا الوقت الذي هو ليس بوقت صلاة وبعضهم قد استراح في (تكويعة) تشبه التكويعة التي نعرفها عن أهل غربي إفريقية وهي أن يضطجع المرء على جنبه معتمداً على مرفق يده الذي يستند على الأرض ويسند رأسه على كفه فيكون في حالة بين حالتي المضطجع والجالس.

وقد قدرت أنا وزميلي السفير الدكوري عدد المصلين الذين تتسع لهم هذه الساحات بما لا يقل عن عشرة آلاف مصلٍ.

ويذكر أنها كلها مسورة مصونة، وهناك مظلة كبيرة للنساء وهن يشهدن الجمعة بكثرة كما هو حال أكثر الإفريقيات، والمسجد ذو منارتين أو بالتعبير الأدق صومعتين لأنهما مبنيتان على الطراز الأندلسي المغربي الذي تكون



المسجد الجامع الكبير في نيامي

فيه المنارات مربعة مستقيمة الجوانب إلى حد معين من الإرتفاع ثم ينهض منها قسم مربع أيضاً مستقيم الأركان إلا أنه أضيق من الجزء الذي تحته إلا أن هذه المنارة النيجرية غير مزخرفة ولا منقوشة بالنقوش التي تكون عادة في الصومعات الأندلسية والمغربية في المساجد التي يعتنون بزخرفتها. ويصح أن يقال بأنهما بنيتا على طراز عربي متأفرق.

وهما مرتفعتان ظاهرتان في هذا المسجد الكبير الهام الواقع في وسط المدينة ولذلك ذكروا أنه يمتلىء على سعة ساحاته بالمصلين يوم الجمعة.

وكان المسجد الرئيسي مغلقاً حتى نادوا على حارس اسمه (سيني) أي حسين وهذا هو نطقهم باسم حسين حتى رئيس الجمهورية حسين كونتشي يقولون له (سيني كونتشي) فتح الحارس الباب بسرعة وعاد يصحح اسمه بأنه (سيني) غير أن لقبه (ميكائيل) وربما كان يقصد بذلك لقب عائلته.

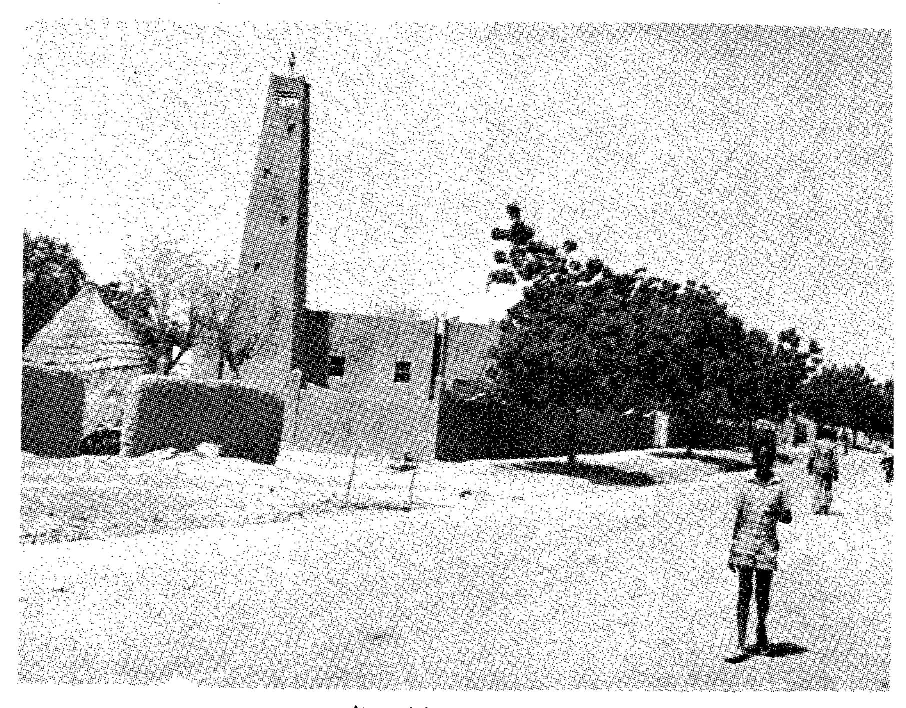


الناس وهم في انتظار صلاة الجمعة في جامع نيامي القديم

والمسجد نظيف جيد العناية في الداخل له قبة غير مرتفعة وإنما هي على هيئة غطاء الطبق بعضه مفروش بالسجاد العربي وبعضه بالحصر.

ومن المسجد تجولت في حارة ملاصقة له بيوتها من الطين الرث والتقطت لها صورة رغم ما ظهر لي من عدم ترحيب الأخ الشيخ البيهقي بذلك حرصا على أن لا يرى الناس من بلاده إلا ما هو جميل وحديث وإن كان هو لم يصرح لي بذلك.

وهذه الحارة الطينية التي تظهر بيوتها كأنها بيوت قروية في الصحراء العربية قبل الرفاهية الإقتصادية الأخيرة لولا أن هناك أشياء هي من صميم البيئة الأفريقية البعيدة عن تقاليد الأمة العربية تجبرنا على أن نبعد عن خواطرنا القرى العربية، ومن في القرى العربية منها نساء حاسرات الوجوه والأذرع يطبخن الطعام في الشارع وشيوخ وعجائز سود الألوان يستندون إلى



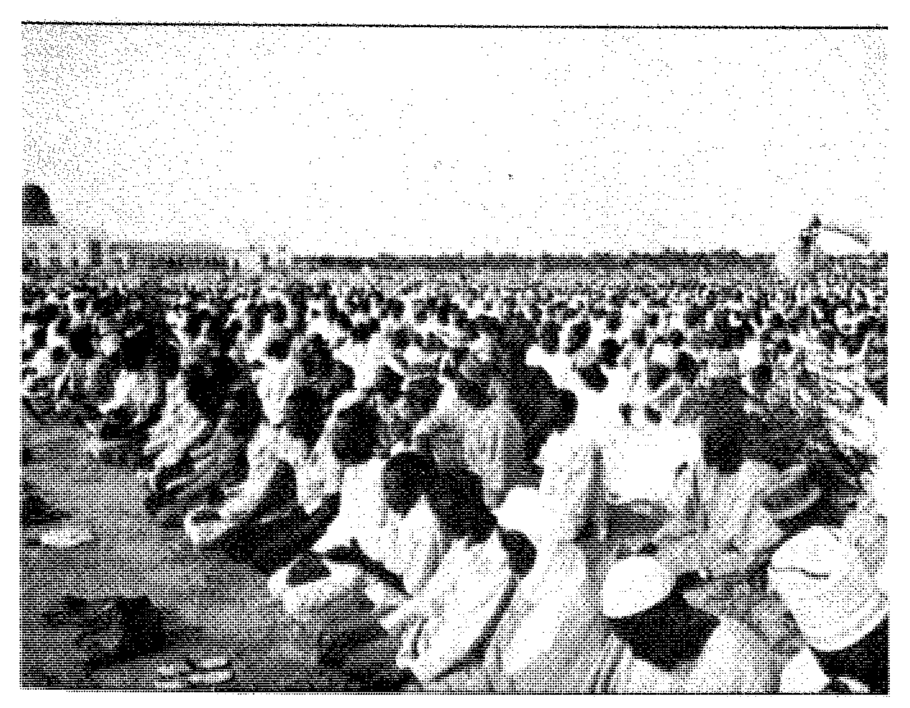
مسجد مبني على الطراز القديم

أصول الحيطان وقد مد أكثرهم رجليه مداً. وحزم كثيرة مختلفة الأحجام من الحطب المعد للبيع ويستعمل للطبخ مما قد استعاض عنه بنو قومنا بالطبخ على (الغاز الطبيعي).

ثم شاهدنا في شارع آخر واسع جماعة من ذوي الثياب النظيفة جالسين على حصير في طرف الشارع قال لنا مرافقونا إنهم من الوجهاء والأعيان.

حي دمكلي:

ذهبنا إلى حي (دملكي) لمشاهدة نموذج من المساجد القديمة الصغيرة بعد أن شاهدنا الجامع الكبير: مع أن المسجد الذي أرانا قومنا إياه ليس كذلك فهو مبني بلبن الإسمنت وليس بالطين كما هو الشائع في البناء القديم في هذه البلاد وهو صغير بمثابة الغرفة الواسعة مفروش بجلود من



منظر لصلاة العيد قرب الجامع الجديد في نيامي

جلود الغنم التي يكثر فيها اللون الأبيض وعند بابه الخارجي مما يلي الشارع مقعد طويل من الطين المطلي بالإسمنت يرتفع من يجلس عليه عن أرض الشارع.

حي المدينة:

ومن هذا الحي الشعبي توجهنا إلى حي حديث وإن كانت في بعض أجزائها بيوت شعبية إلا أنه واسع يسمى (حي المدينة) ويراد بها المدينة المنورة.

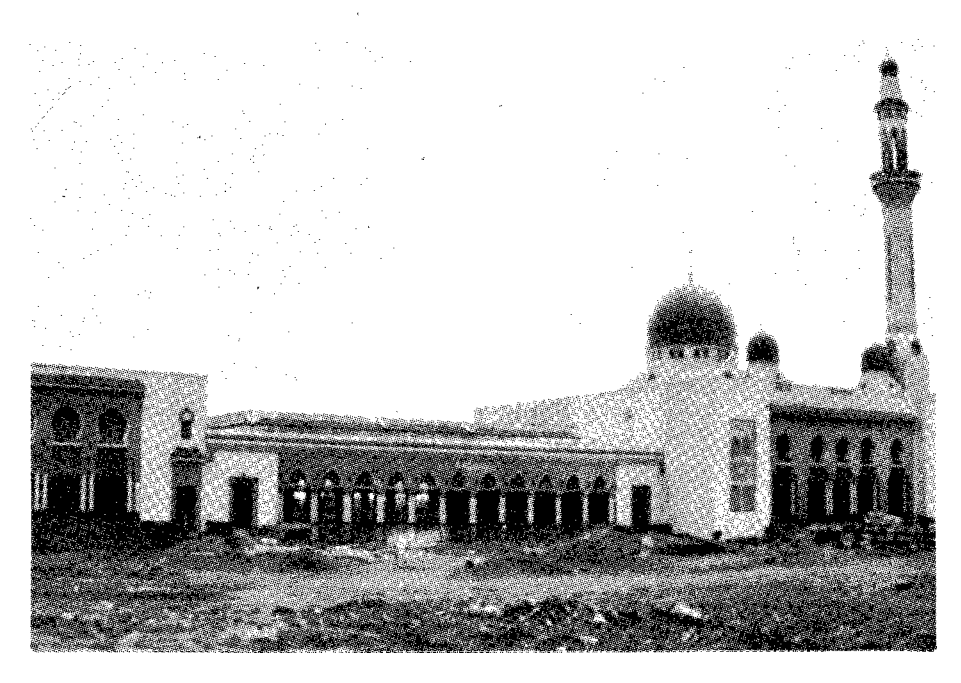
وقد مررنا قبل الوصول إليه بمدينة الملك فيصل إضافة إلى الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله أسموه بهذا الإسم اعترافاً بمساهمة المملكة العربية السعودية في بنائه وأكثر منازله مخصص لسكنى موظفي الدولة.

والشوارع في هذا الحي وفي أكثر الشوارع من الأحياء الجديدة حتى الشعبية البائسة نجدها واسعة جداً، وليست مثل الشوارع في أكثر البلدان العربية التي تكون ضيقة في الغالب ولو كانت واقعة في قلب الصحراء الواسعة.

وكثير من هذه الشوارع الواسعة غير مسفلت والمسفلت منها يكون الإسفلت شريطاً ضيقاً في وسطه كأن يكون عرض الشارع أربعين متراً ويكون عرض الإسفلت في وسطه أربعة أمتار. وفي هذا الحي الذي تدل المنازل الشعبية القريبة منه على رقة الحال وقلة الدخول يوجد خزان عالٍ للمياه على طراز حديث كهيئة الطبق ليس ببعيد الشبه عن خزان المياه الموجود في الرياض.

وفيه مصلى العيد وغير بعيد منه مسجد كبير أنيق مشرف المنار، قد امتزج فيه طراز البناء العربي الشرقي بالطراز الغربي الأندلسي، فالقباب والمنارات عربية مشرقية والأعمدة والزخارف مغربية أندلسية وقد امتزج الطرازان في تناسق عجيب جميل.

عندما وقفنا عند بابه أسرع بفتحه حارس طارقي ـ من الطوارق ـ ملثم



الجامع الجديد في نيامي

حوله نساؤه غير محتجبات وإن كان يظهر عليهن الإحتشام فهذا هو شأن الطوارق كما أسلفنا أن يتلثم الرجال حتى يستروا أكثر وجوههم وأن تسفر النساء حتى لا يسترن من وجوههن شيئاً.

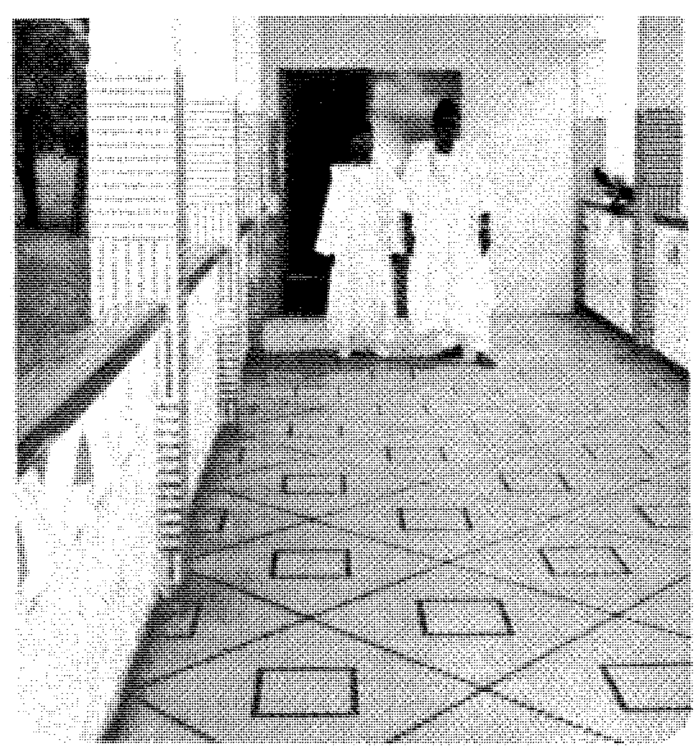
وقد تبرعت الحكومة الليبية بنفقات بناء المسجد جميعها غير أنه عندما قارب على الإنتهاء بل انتهت أعمال البناء كلها فيه ولم يبقَ إلا أشياء لا تستحق الذكر مع الفراش والأثاث حصل الإختلاف ما بين حكومة النيجر والحكومة الليبية فأوقفت السياسة من أمور هذا المسجد ما كانت قد أقامته. ولكن المسجد بقي حيّاً يجمل هذا الحي الحديث ويعلي شعار الإسلام في هذه البلاد المسلمة.

وعندما دخلناه وجدنا باطنه أجمل من ظاهره على جمال ظاهره. وكان

من أجمل ما فيه محراب خشبي مصنوع في المغرب من خشب محفور وفق فن إسلامي أصيل لم تشبه شائبة من فن آخر غير إسلامي.

وتتسع المرافق في هذا الحي ومن ذلك شوارعه ومصلى العيد الذي غرسوا فيه أشجاراً من أشجار النيم من أجل الظلال، وملعب كرة كان عامراً باللاعبين. وأرض للجمعية الإسلامية يقول الأخ البيهقي: إنهم ينوون أن يقيموا عليها مركزاً إسلامياً متكاملاً حين يستطيعون سبيلاً إلى ذلك.

ويمكن تشبيه هذا الحي وأحياء أخرى جديدة في هذه العاصمة بالبيوت في ضواحي بعض المدن الأمريكية من حيث التباعد والسعة في المرافق أو الشوارع والساحات التي تفصل بينها مع الفارق الكبير بطبيعة



داخل رواق الجامع الجديد في نيامي - الشيخ القاسم البهقي والسفير عبد الوهاب الدكوري

الحال بين الإثنين في كثير من الأشياء، فالبيوت هنا بعضها طين وبعضها من لبن الإسمنت من طابق واحد لسعة الأرض.

سعة الشوارع وكثرة الأطفال:

لاحظت سعة الشوارع وأبديت هذه الملاحظة للأخ الأستاذ القاسم البيهقي فقال: هذا صحيح، والبلدية تحسب حساب المستقبل، وإن كانت الإمكانات الحاضرة غير مشجعة.

ولكني أيضاً لاحظت كثرة كاثرة في عدد الأطفال الصغار من بنين وبنات، وتكاد جوانب الشوارع تضيق بهم على سعتها غير أنهم لا يشكلون مشكلة لسائقي السيارات رغم كثرتهم لأن سعة الشوارع وكونهم اعتادوا على اللعب في جوانبها تمنع من ذلك.

وأبديت للأخ البيهقي ملاحظتي لكثرة الأطفال هنا فقال: إن بلادنا من البلدان الحارة التي يكثر فيها الزواج ومن ثم يكثر إنجاب الأطفال.

ولا شك أن هذا صحيح وهو من أسباب ذلك، ولكن هناك أسباب أخرى جعلت كثرة الأطفال في الشوارع ظاهرة، وهي عدم وجود الملاعب والحدائق الخاصة بهم وعدم استغلال أوقاتهم فيما يفيدهم تحت إشراف المربين المدربين.

مستوصف الرابطة:

قصدنا مستوصفاً آخر لرابطة العالم الإسلامي في جهة نائية من المدينة بالنسبة إلى موقع المستوصف الأول الكائن في الجهة الجنوبية من النهر فوجدنا حارسه عربياً من قبيلة (نواجي) التي مساكنها قريبة من مدينة تنبكتو في مالي اسمه يحيى أبو بكر ويتكلم العربية كما يتكلم بها الشناقطة ويشبه شكله اليمانيين.

أخبرنا الحارس بغرضنا فأسرع ينادي المسؤول عن المستوصف وهو

مواطن نيجـري من (الهوسا) أو الحوس كما كان المؤرخون الـذين كتبوا تاريخهم بالعربية يسمونهم، واسمه (محمد قديز) وهو مساعد طبيب ويسكن في جانب من بناء المستوصف.

ولما سألناه عن عدد الذين يراجعون هذا المستوصف يومياً؟ أجاب بأنه أربعمائة شخص فلما أبدينا استغرابنا لذلك واستكثارنا لهذا العدد قال بعض الحاضرين من إخواننا النيجريـين إن هذا ليس بغريب، فالمراجعون كثيرون والمستوصفات قليلة والمستوصف هذا يصرف لهم الأدوية المتوفرة لديه بالمجان، وقال محمد قديز: إن المستوصف لا يشكو من قلة الأدوية.

ويقع في حي شعبي أكثر سكانه من الفقراء يسمى (بوكوفي الأول) أو (بوكوفي رقم واحد). والمستوصف في أرض مملوكـة له غيـر أنه يحتـاج إلى قـاعات واسعـة لانتظار المـراجعين وإلى سور يمنـع عنه دخـول البهـائم والفضوليين.

كما أنه يحتاج إلى توسعة بسبب زيادة مراجعيه الذين يزداد عددهم باستمرار بسبب توسع السكن في الحي.

ومن المشـاهد الـطريفة في هـذا الحي مشهد أغنـام بيض شديـدة البياض ذكرني بمنظر الإبل ذات اللون الذي يسميه الأعراب عندنا الأقمر نسبة إلى القمراء: ضوء القمر ويسمى أهل الحضر مثله باللون السكري، والإبل هنا شديدة البياض أيضاً بالنسبة إلى بياض الإبل الذي هو السكري، لأن الإبل لا يكون فيها بيض خالصة البياض كما لا يكون فيها سود شديدة السواد.

فإذا كان ما يعرف عن أصل الإبل في هذه الصحراء الإفريقية من أنه من الجزيرة العربية صحيحاً، فإن شمس هذه البلاد قد زادت الإبل بياضاً وربما كانت قد زادت الغنم أيضاً بياضاً ولكنها نقصت الإنسان نقصاً شديداً من ذلك البياض، بل إنها أعطته رغماً عنه سواداً لا تمحوه السنون، إلا إذا

هجرها إلى بلاد لا تصبغ بالسواد فإن ذريته بعد قرون لا شك في أنهم إلى البياض سيعودون، ولله في خلقه شؤون، وهو سبحانه الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

التعديل في البرنامج:

كان من برنامجنا المقرر أن نزور بلدة ساي وذلك لمكانتها الدينية القديمة. ولمشاهدة أبنية الجامعة الإسلامية التي تقام هناك.

وكان الأخ السفير عمر جالو ثم الأخ البيهقي قد جاءا الينا بموافقة الحكومة النيجرية على القيام بالزيارة والمراد بالحكومة هنا رئيس الجمهورية.

ولم نكن نريد أن نشغل المسؤولين بهذا الأمر إذ هو أمر سياحي معتاد، وكان الأخ القائم بالأعمال في السفارة السعودية الأستاذ ماجد عبد العزيز الدايل قد اتفق معنا في الرأي على ذلك، وقال: إنه حسبما يعرف يمكن أي شخص أن يزور تلك المدينة التي ليس فيها منشاءات دفاعية أو أشياء سرية. ولذلك وضع تحت تصرفنا سيارة مكيفة من سيارات السفارة ومرافقاً من أهل البلاد يعرف الطريق إليها وقال إن الأفضل أن تبدأ رحلتكم في السابعة صباحاً قبل اشتداد الحر.

وقد وافقناه على ذلك لأننا لم نطلع على قانون يمنعنا من زيارتها. كما أننا قدمنا إلى هذه البلاد بموجب تأشيرة سياسية من سفارة النيجر في جدة.

ولكن أصحابنا الموظفين الكبار في هذه البلاد أبوا إلا أن يربطوا ذلك بأمر من الرئيس ومن الحكومة والوزراء.

وقد أخبرنا اليوم الأخ البيهقي أن وزير الداخلية قد حدد انطلاق زيارتنا في التاسعة من صباح الغد وأن حاكم مدينة ساي غائب عن البلاد ولكن سيكون نائبه في استقبالنا.

ولما قلنا له: إن هذا وقت متأخر قال: إنه لا يمكن تعديل الموعد إلا بإذن من الحكومة لأنهم رتبوا كل شيء على ذلك.

وفي المساء اتصل بنا وقال: إن وزير الداخلية قد أذن بتغيير البرنامج وسوف يرتبون استقبالكم على أساس الموعد الجديد.

ونظراً إلى عزمنا على مغادرة البلاد بعد الظهر وخشية من تأخرنا هناك إلى جانب شدة الحر وتأثرنا مما رأيناه من إعطاء زيارتنا لهذه المدينة الإسلامية من أهمية لا تستحقها في نظرنا حتى وصلت إلى أعلى المستويات، ولأن السفارة كانت قد رتبت دعوة تناول الغداء في بيت السفير ظهر اليوم، فقد رأينا إلغاء زيارة مدينة (ساي) وافترضنا أن ذلك إلى كونه سيريحنا نحن من ضيق البرنامج فإنه سيريح إخوتنا أيضاً من أهل البلاد الذين أعطوا زيارتنا المقترحة من الأهمية ما لا تستحقه.

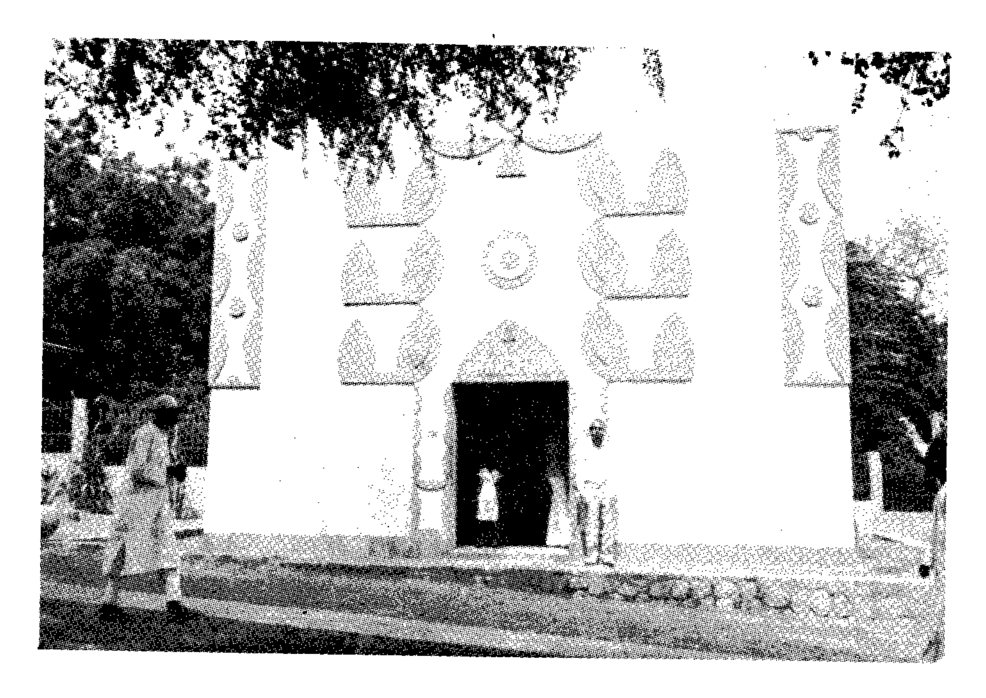
في المتحف الوطني:

خرجنا إلى المتحف الوطني مع الأخ الأستاذ قاسم البيهقي وهو رجل واعٍ عارف بأمور هذه البلاد وبخاصة ما يحتاج سائح مهتم مثلي إلى معرفته.

والمتحف كما قلت يقع في ركن من حديقة الحيوان مقابل لفندقنا (جاوي) فسار معنا مرشد من موظفي المتحف.

فكان أول ما اطلعنا عليه نماذج من المخلفات المهمة لأهالي هذه البلاد منها أسلحة وأوانٍ للهوسا أو الحوس الذين لا يرجعون إلى أصل قبلي واحد ولكنهم كما يعرفون الآن تجمعهم لغة واحدة واسعة الإنتشار في مناطق السودان الغربي في نيجيريا والنيجر وغانا وبنين وفولتا العليا.

كما يشتمل القسم على عرض ملابس لطائفة السنغي أو السنغاي كما يكتبها بعضهم مما حمل بعض الباحثين الذين يستسهلون الصعب على المسارعة بالقول بأنهم السنغاليون وإن أصل كلمة سنغال مأخوذة من كلمة سنغاي.



مدخل متحف نيامى

وهذا زعم باطل مرده إلى جهل القائل بموقع بلاد السنغي أو بأصل كلمة سنغال التي سمي بها هذا القطر المعروف الآن الواقع على البحر المحيط (المحيط الأطلسي) والذي عاصمته (داكار).

فذلك لم يكن في القديم موطناً للسنغي، بل كان الجزء الشمالي منه واقعاً في دولة (غانة) القديمة التي كانت عاصمتها فيما فهمته من كتب التاريخ القديم واقعة على ضفتي نهر السنغال بدليل قول ابن سعيد المغربي: (نيل غانة) شقيق نيل السودان، وهو يصب في البحر المحيط الأعظم، يريد بذلك نهر السنغال، كما يريد بنيل السودان نهر النيجر.

أما كلمة (السنغال) فإنها حديثة النشأة جاءت مع وصول أول جماعة من المكتشفين الأوروبيين وهم من البرتغاليين قيل إنهم نزلوا في البر فسألوا

صيادين هناك عن اسم المكان ولم يكونوا يعرفون لغتهم فقال الصيادون: (سنو قال) أي: قاربنا ظنوا أنهم يسألون عن قارب لهم أشاروا إلى جهته.

وأما السنغي فإنهم طائفة معروفة أسس زعماؤها مملكة عظيمة في شرق مالي عاصمتها (قاو)، التي كانت تسمى في المصادر العربية (كوكو) وكان ملوكها يسمى الواحد منهم بالإسكيا واشتهر منهم الإسكيا محمد الذي كان ملكاً صالحاً عادلاً.

كما اشتمل المتحف على مخلفات وملابس لقبيلة الجارما التي يسميها الكتاب المتأخرون بالعربية من أهل بلاد السودان (بني زرما) والتي منها رئيس النيجر الحالي العقيد حسين كونتشي.

كما عرضوا الملابس التقليدية للطوارق الذين هم في الأصل سكان الصحراء ثم سكن بعضهم في المناطق المدارية الإفريقية أو الساحل الصحراوي كما يسميه بعضهم وهي تسمية اطلقت على الدول المتاخمة للصحراء التي نكبت بالجفاف منذ خمس سنوات فصارت تسمى دول الساحل مع أنه ليس على الساحل منها غير اثنتين، السنغال وموريتانيا.

وقد لاحظت أن التماثيل التي وضعت لتمثل الرؤساء من غير الطوارق كانت لأشخاص ملثمين فسألت الدليل عن ذلك فقال: إن العادة جرت على أن يتلثم الرؤساء من هذه الطوائف وإن لم يكونوا من الطوارق.

الشجرة الشهيدة:

وجدناهم قد وضعوا شجرة يابسة في قفص كبير تعرض كما تعرض التماثيل النادرة التي تكون في الخزائن الزجاجية أو التي واجهتها زجاج.

وكان منظر هذه الشجرة معتاداً بالنسبة إلينا وإلى سائر المشاهدين ليس فيه ما يلفت النظر أو يسترعي الإنتباه من قريب أو بعيد. ولكن القوم قد احتفوا بها ووضعوا لوحات تمثلها وتحكي قصة تاريخها والناس يقفون ويتفرجون عليها.

وأخذ الدليل يشرح قصتها والشيخ البيهقي يترجم من اللغة الوطنية

وأحياناً يترجم الشيخ الدكوري من اللغة الفرنسية إلى العربية، والدليل يقول باهتمام: إن هذه الشجرة كانت شجرة فريدة في صحراء قاحلة ليس فيها شجرة أخرى غيرها بقربها ولا فيما حولها. وقد استمر الناس يستظلون بظلها من هجير الصحراء مدة طويلة من الزمن لا يعرف مقدارها بالضبط لأن الذين شهدوا موتها لم يعرفوا تاريخ نشأتها والذين كانوا يعرفون نشأتها لا يعرفون بأنها ستموت هذه الميتة وتخلد هذا الخلود، ويقدر الخبراء كما هو مكتوب في البيانات الرسمية أنها قد عاشت ما بين مائة وخمسين عاماً إلى ثلاثمائة وخمسين عاماً هكذا تفاوت تقديرهم لأنهم حتى الآن في انتظار أن يصل خبير معه الأجهزة العلمية الدقيقة التي تستطيع تقدير أعمار الأشجار والمخلفات القديمة على وجه يقرب من الصحة.

قالوا: وقد عدت عوادي الدهر على هذه الشجرة المضياف الحانية في قلب الصحراء الحامية في النهار، القارسة في الليل فوجدت مقلوعة لم ينكسر منها شيء وإنما هي ميتة كموت الشهداء الذين لا تأكل الأرض أجسادهم، فالذين اغتالوها لم يغتالوا خشبها ولا حطبها.

فاعتبرت شجرة لا كالشجر وإنها ذات أنماط. ولا أقول: ذات أنواط فريدة، لذلك نقلوها كلها وقرروا تخليد جسدها (الخشبي) في هذا المتحف حتى تراها الأجيال الصاعدة التي تقدر خير تقدير مكانة الشجر في الصحارى القاحلة الماحلة.

قالوا: وهي شجرة برية صحراوية لا ينفع في تعويضها أن تغرس شجرة أخرى في مكانها فهكذا أشجار الصحراء في أكثر الأماكن كأبناء الثكلى التي مات زوجها وخلف لها يتيماً إن مات لم ترج من أبيه خلفاً له.

قالوا: وكان مصرع الشجرة بل كان ذلك مكتوباً واضحاً في عام ١٩٧٢م، أي منذ عشر سنوات وقد جربوا أن يغرسوا في مكانها شجرة أخرى من غير جنسها فلم يفلحوا ـ أما الأشجار التي من جنسها فهي من الأشجار التي تسمى باللغة العلمية (أكاسيا) ونحن نسمي الصحراوي أمثالها بأشجار الطلح.

وقـد كان مـولدهـا وموتهـا في مكان يسمـونه (تنيـرا) وتنيرا بلغـة الطوارق وعلى وجه التحديد لغة قبيلة (سماجع) التي ربما كانت هي صنهاجة معناها الصحراء ولكنها أصبحت علماً على مكان فيها بعينه مثلما أصبحت كلمة الصحراء على الصحراء الغربية وهي وصف للأرض. ومثلما نقلت كلمة الصحـراء عن اللغة العـربية إلى اللغـات الأوروبية فـأصبحت فيها كلمـة (صحـارى) مرادفـة أو مقاربـة لكلمة (ديـزرت) فيها لمـا يقرب من هـذا المعنى.

ويقع ذلك المكان شرقي بلدة (أغاديس) الصحراوية بمائتين وثمانية وثلاثين كيلو متراً.

وهذه مسافة بعيدة ولكنها لا تعد ذات بال بالنسبة إلى سعة الصحراء الإفريقية أم الصحارى في العالم التي لا توجد معالم أو صوى في كثير من أجزائها.

والمعلوم أن أغاديس تبعد عن العاصمة نيامي بحوالي ألف كيلو متر، وسيأتي الحديث عن الرحلة إليها فيما بعد إن شاء الله.

غرفة ما قبل التاريخ:

في قفزة تاريخية هائلة لا فخر لنا فيها انتقلنا مما بعد التاريخ الذي شهد شواهد قبائل الطوارق والهوسا والجارما وغيرهم من سكان هذه البلاد السودانية ثم الشجرة الشهيدة إلى ما قبل التاريخ في غرفة كان أهم ما فيها بروزاً هيكلاً عظمياً لحيوان من العمالقة الكبار التي كـانت تجوب أنحـاء الأرض قبـل مئات الألـوف من السنين أو هي سنون لا يعلم عـددها ولا بعـدهـا عن عالمنا الحاضرإلا الله تعالى. وهو هيكل كامل لديناصور هائل وجد في الصحراء الإفريقية عام ١٩٧٢م في منطقة أغاديس ذاتها التي استشهدت فيها تلك الشجرة المبجلة.

والأهم في الأمر ليس مجرد وجود الديناصور في الصحراء الإفريقية التي كانت في زمنه خصبـة مطبـرة مزدهـرة تطّرد فيهـا الأنهار. وتتشـابك

الأشجار وتعج بالحيوانات الكبار العملاقة المنقرضة وذلك قبل تصحرها أو قل قبل أن تكون صحراء بأزمان وأدهار والذي أعتقده أنها أدهار ـ لم يقتصر تبدل الصحراء فيها على مرة واحدة هي المعهودة الموجودة بين أعيننا الآن وإنما هو تبدل حصل عدة مرات إذْ مرت بها عصور جليدية وأخرى مطيرة ثم عهود صحراوية قتيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن مما هو بلا شك لا يعدو أن يكون حقبة من حقب التبدل والتغير لا بد أن تعقبه فترة يكون فيها للصحراء ازدهار واخضرار ويكون فيها أمطار تسيل منها الأنهار وتشتبك الأشجار وتينع الثمار ما دام يعقب النهار ليل وما دام الليل يكون بعده نهار، اللهم إلا إذا أدرك الفناء الأرض ومن عليها في مدة زمنية عاجلة فقامت القيامة، ووقعت الطامة فوقفت الدورات الطبيعية الأرضية بل ربما وقفت الأرض عن الدوران فانكدرت السماء وسجرت البحار وكورت الشمس مما علمه عند ربي لا يجليه لوقته إلاَّ هو.

وهيكل هذا المخلوق الضخم المسمى بالديناصور قد شهد كل تلك الحقب المتعاقبة على الصحراء وصمد لجميع تقلبات الجو فيها من مطير إلى قتير ومن جحيم إلى زمهرير حتى يقدر لنا نحن أن نراه كما هو ضخم االفقار عظيم المقدار.

ولما سألنا الدليل وترجم لنا أصحابنا ما هو مكتوب من بيان على المعروضات قال الجميع: إن تلك العظام قد وجدت ضمن ما يصح أن يسمى مقبرة ضخمة لعمالقة التاريخ الذي سبق التاريخ وفيها إلى جانب الديناصور تماسيح ضخمة لا يوجد لها مثيل الآن.

بل إن هذه الحيوانات الكبيرة التي تعتبر بحق بمثابة الأسلاف للحيوانات الكبيرة الموجودة الآن على وجه الحياة التي تعتبر بالمقارنة معها من الأطفال كانت هناك بقايا أشجار ضخمة جداً هي بالنسبة إلى الأشجار المعروفة الآن مما يقرب من تلك المنطقة بمنزلة الديناصورات بالنسبة إلى التماسيح المعروفة الآن.

وما دمنا في الحديث عن الأطفال فإنه يجدر بنا أن نسجل ما ذكره

الدليل من أن هـذا الديناصور الضخم الـذي يبلغ طولـه كما شـاهدنـاه خمسة عشر متراً أي أكثر من طول ثمانية رجال طوال إنما هو (ديناصـور طفل) كما يقول علماء الحفريات وهم يدرسونه على هذا الأساس. ولو كان وزن ما تبقى من عظامه وكلها باقية يعادل وزن ثلاثة جمال، فمـا بالـك بشحمه ولحمه وجلده أيضاً الذي لا بد من أن يكون ضخماً لكي يصمد لحمل ذلك الشحم واللحم والعظم الذي يعادل وحده وزن الفيل الحي، ولا بد من أن يكون سميكاً قوياً يصمد أيضاً لهجمات زملائه من عمالقة التاريخ الذين لا بد من أن يكون بينه وبينهم ما يكون بين العمالقة الضخام من الإقتتال والإختصام و (فوق كل طامة طامة) كما يقول المثل العربي أو (كل طامة عليها أطم منها) على حد نطق المثل العامي.

وتواردت على ذهني الآثار التي رويت عن أن الأرض كانت معمورة بأمم قبل بني الإنسان فدثرت وبادت وإن كانت تسمياتها في تلك الآثار لا تدل على عظم الخلق ولا ضخامة الأجسام مثل الحن بالحاء والبن بالباء الموحدة.

ولم يكن من جواب على الأسئلة التي ترد على الخاطر بسرعة عن صحة ذلك، وعدم صحته إلا بأن يقول المرء: الله أعلم.

ومن نفائس المعروضات فيه جمجمة ضخمة لمخلوق شبيه بالإنسان أو هو إنسان من العمالقة، ربما كان من أوائل البشر الذين عمروا الأرض. وطائفة من الجماجم الأخرى إنسانية معتادة ومعها من باب المقارنة جماجم قديمة لقرود وأطفال من أطفال الأقدمين. وقد كتبوا عليها أن عمرها يبلغ أربعين ألف سنة قبل الميلاد.

كما أن هناك أدوات من الحجـارة مختلفة يقـولون إنهـا من العصر الحجري فيها عمود غير كبير وسلاح مما يدافـع المرء بـه عن نفسه من الحجارة أيضاً. ثم أدوات حجرية راقيـة منها رحـا لطحن الحب بـطريقة سحقه على أرض الرحا عن طريق ضغطها بحجر مهذب مستطيل.

ومن الأشيـاء الثمينة فيـه جرار من الفخـار فيهـا جثث أمـوات من

الأقدمين قد وضعوا فيها مع الميت بعض ما يملكه أو ما هو عزيز لديه ودفنوه معه ومنها جثة رجل قد وضع دافنوه معه كلبه العزيز لديه، فإما أن يكونا ماتا معاً أو أن يكون الكلب ذهب ضحية حب صاحبه له وإيثاره أن يكون بجانبه في مماته كما كان في جانبه في حياته.

وهيكل عظمي لرجل طويل يبلغ طوله ١٩٨ سنتي متر لم يذكر تاريخ وفاته أو حياته على هذه الأرض، وقد وجدوه في منطقة (عير) أو آبير الصحراوية في النيجر.

ومن ذلك مخلفات حداد معه كيره ومنفاخاه مما يدل على مدنية متقدمة إذا كانت قديمة التاريخ إذ لم يوضحوا تاريخها والكير من الطين كأنه التنور عندنا وليس كالكير المعروف في بلادنا في الوقت الحاضر.

ومن الأشياء التي لها دلالة خاصة عندي رسوم رثة أي غير دقيقة خلفها الأقدمون على حجارة في الصحراء، وقد رسموا فيها الأنف مستطيلاً في الوجه مما يدل على أن راسميها لم يكونوا من البانتو أو ممن يسمون الزنوج الذين يتميزون بقصر الأنوف، وإنما هم قوم من جنس الفراعنة أو قدماء الصحراويين من الذين لا يبعدون كثيراً عن جنس البحر الأبيض المتوسط، كما أن العينين في تلك الرسوم كانتا واسعتين مما يدل على ما ذكر.

ومن الأشياء الملحقة بالمتحف التي رأيناها ونحن في طريق الخروج منه بيت لأهل البلد ويسمى عندهم (توبو) يستعمل في الصحراء بمثابة بيت الشعر عند بدونا غير أنه مصنوع من خوص الدوم لأن أهله يظلون في مكانهم مدة طويلة لكونهم يعيشون على حدود الصحراء في منطقة أقل جفافاً مما يجعلهم يبقون مع مواشيهم فترة زمنية كافية لاستهلاك هذا البيت. ولو كانوا يضطرون لقلعه وإعادة بنائه في فترات زمنية متقاربة جداً لما كان الخوص مناسباً له ولكانوا كالطوارق الذين يبنون بعض بيوتهم من جلود أو كالأعراب الذين يبنونها من الشعر.

إلى خارج نيامي:

أبديت للأخ الأستاذ البيهقي رغبتي في الإطلاع على جزء من الريف النيجري خارج المدينة بعد أن فاتني السفر إلى مدينة (ساي) الذي كنت أؤمل أن يكون اطلاعاً عليها وعلى الطريق ما بينها وبين المدينة.

فقال: إن الوقت فيه متسع والسيارة التي معنا وهي سيارة السفارة جديدة مكيفة فلنخرج على طريق مدينة ساي نفسها لنرى منه ما يمكننا أن تراه في الوقت المتيسر لك.

فخرجنا إلى ضواحٍ من المدينة في هذه الناحية تنتشر فيها المنازل الشعبية على هيئة أكواخ أو عشش ـ جمع عشة ـ من الأعواد ذات سقوف من القش وبعض البيوت مبنية من الطين. وذلك خلاف ما شاهدناه في داخل العاصمة من كون البيوت هذه غير موجودة فيها.

كان مسيرنا على ضفة وادي النيجر اليمنى غير بعيد من النهر فهذا هو الطريق العام الموصل إلى بلدة (ساي)، وقد أصبح المنظر ريفياً أخضر ندياً إذْ جاده السحاب قبل فترة، وكانت هذه السنة سنة جيدة ليس فيها جدب، وقد زرعت الأرض بالدخن والأرز. فما كان قريباً من النهر أو في أرض منخفضة نسبياً فإن الأرز يكون هو المزروع وما كان أعلى من ذلك يكون مزروعاً بالدخن الذي لا يحتاج إلى المقادير الكبيرة من المياه التي يحتاج إليها الأرز.

وبعيد مغادرة المدينة اعترض طريقنا شرطيان واقفان مسلحان، وهما من رجال الجيش وأوقفا السيارة ولكن الأستاذ البيهقي تكلم معهما بما لم أفهمه فسمحا لنا بمواصلة السير.

وقد كثرت أشجار الدوم الضخمة ذات الرؤوس المتعددة، وأحياناً ذات الفروع المتعددة في المنطقة وهي وإن لم تكن بذات ثمر فإنهم ينتفعون بسعفها للحصر وبجذوعها للتسقيف وبما بقي من ذلك حطباً للوقود.

وعندما سرنا قليلاً ظهرت على يمين الطريق كثبان رملية غير عالية ولكنها مكسوة بأعشاب الربيع البرية النضرة وهم يسمونها أعشاب الخريف لأن موسم الأمطار يكون في آخر الصيف وأول الخريف. أما أشهر الشتاء عندنا التي تمطر فيها السماء عادة أمطاراً تنبت منها الأعشاب في فصل الربيع فإنها عندهم جافة.

والطريق ترابي معبد أي ليس مسفلتاً ولكنه غير مهمل.

ثم مررنا بقرية صغيرة كل منازلها مؤلفة من القش وبقربها بساتين من أشجار البرتقال، ونخل من نخيل التمر ولكنه رديء النوع والمظهر، نحيف القوام.

وقد أخذ مجرى النهر يتسع هنا كما أخذت ضفافه تتطامن مما يسمح بغرس الأشجار فيها وإن كانت معظم ضفافه المباشرة ليس عليها خضرة نظراً لوصول المياه إليها في بعض الحالات عند زيادة النهر. وكان الأستاذ البيهقي يشرح لي ما أريد شرحه من المناظر التي هي جميلة جمالاً طبيعياً في فصل الأمطار هذا.

ومن أجمل ما فيه منظر الوديان التي كانت تقطع الطريق متجهة إلى النهر ربما لتعوض المياه التي استهلكت منه على طول مساره من جبال غينيا حتى وصوله هذه البلاد، وبعضها لا يزال فيه غدران من بقايا مياه السيل.

ومن الطريف في هذا المكان الذي تتجه فيه مياه الوديان التي تشبه مجاريها الرملية مجاري بعض الوديان في صحرائنا العربية أنني رأيت بعض أصحاب الإبل وهم يسوقونها وسط هذه الخضرة الشاملة، التي لم تألف إبلنا مثلها في الصحراء. أو ما يقرب من الصحراء. وأهلها سود الألوان لا يشابهون أعرابنا في اللون.

أما الحيوانات المألوفة في مثل هذه الأماكن فهي الأبقار الكبيرة الجيدة ترعى على حواشي المناطق المزروعة بالدخن والذرة.

وبهذه المناسبة نذكر أن الغذاء الرئيسي للأهالي هو الذرة يليها في

ذلك الدخن، أما الكسافا واليام الـذي هو عـروق كبيرة تنبت في بـاطن الأرض وهو الغذاء الرئيسي لكثير من الشعوب الإفريقية الفقيرة فإنه ليس كثير الإستعمال في هذه البلاد.

ويغلب اللون الأبيض في هذا الريف على الحيوانات والـطيور بـل على الحيوانات المتحركة ما عدا الأناسي فيغلب على لونهم السواد.

وعلى جـانبي الطريق يشـاهد المـرء في بعض الأماكن حـزمـاً من الحطب قد أعدها أصحابها للبيع أو للنقل إلى السوق مما يدل على أن الحطب هو الوقود الرئيسي للطبخ.

ومع خضرة الربيع هنا فإنه يبدو أن الأشجار البرية هي صحراوية أو شبيهة بالصحراوية من الطلح ونحوهـا. وبعد أن وصلنـا إلى بعد ثـلاثين كيلو متراً عدنا من حيث أتينا وقد شفيت النفس من الإطلاع على جزء من هذا الريف النيجري المحاذي للنهر.

على مائدة السفارة:

أسرعنا بحزم أمتعتنا وأودعناها حقيبة السيارة وانـطلقنا مسـرعين إلى منزل السفير لتناول طعام الغداء على مائدة القائم بالأعمال الأستاذ ماجد بن عبد العزيز الدايل وهو أعلى الموجودين في السفارة رتبة إذْ لا يوجد سفير للملكة في نيامي الآن.

ويقع المنزل في حي جيد حديث اسمه حي (بلوتو) أي: الهضبـة بالفرنسية وهو دارة (ڤيللا) تحيط بها حديقة جيدة قد استأجرتها السفارة بما يساوي خمسة آلاف ريال سعودي في الشهر.

كان أحب ما قدمه الأخ ماجد إلينا هو قهوتنا العربية التي افتقدناها منذ مغادرة المملكة.

كما ضمن المائدة خروفاً مشوياً وقد لمته على تقديمـه لنا مـع قلة عددنا لأنه لم يحضر معنا إلا قليل منهم الدكتور كمال الوسيني أجاب بأن

اللحم هو أرخص ما في النيجر وإن كثيراً من الذين يأتون إليها من بلاد يقل فيها ثم يكثرون منه حتى تتأثر صحتهم من ذلك.

كانت الجلسة على الغداء مفيدة لنا في الإستزادة من المعرفة بالأوضاع السائدة في هذه البلاد التي سنغادرها بعد قليل.

وقد شمل الحديث المشكلة التي تعانيها السفارة من قلة الموظفين فيها وذلك لعزوف الشباب السعودي عن العمل في خارج المملكة وبخاصة في أمثال هذه البلاد الإفريقية النامية.

وإن صعوبة النقل إليها تزيد من متاعب العاملين فيها لأنها من الدول المغلقة أي التي ليس لها منفذ على البحر ولم تبلغ هي وجيرانها من القوة الإقتصادية مبلغ التعاون على إيجاد وسائل النقل الحديثة المربحة.

خرجنا إلى المطار في الساعة الثانية والنصف للسفر إلى فولتا العليا.

والحديث عن (فولتا العليا) وثلاثة أقطار إفريقية أخرى في كتاب آخر عنوانه: «بقية الحديث عن إفريقية» وهو كتاب مطبوع.



إلى جمهورية النيجر... ثانية



يوم الثلاثاء ١/٥/١٤٠٥ هـ - ٢٢/١/١٩٨٥ م:

من إنجامينا إلى نيامي:

ركبنا طائرة الخطوط الإفريقية (اير إفريك) التي كانت قادمة من جدة، وكنا قدمنا من بانقي عاصمة جمهورية إفريقية الوسطى على طائرة الشركة الفرنسية (أيتي). ولم نلبث في مطار إنجامينا أكثر من ساعة ونصف، وقد ذكرت قصة السفر إلى إفريقية الوسطى في كتاب (نظرة في وسط إفريقية) المطبوع.

وكانت مغادرة الطائرة إلى (نيامي) في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر بتوقيت إنجامينا الذي هو توقيت نيامي أيضاً، والطائرة من طراز الحافلة الجوية (ايرباص) وليس في درجتها الأولى معي ورفيقي السفير الدكوري إلا امرأتان أظنهما من السنغال على سعة الدرجة الأولى فيها.

طلبت منهم صحيفة عربية لأنهم قادمون من جدة وقد بعد عهدي بقراءة الصحف فأعطوني جريدة المدينة السعودية حيث قرأت فيها أخبار بلادي الداخلية. وكأنما عدت إلى البلاد لفترة قصيرة مما يدل على الأثر الكبير في نفس الغريب إذا قرأ صحف بلاده.

وقد أعلن مكبر الصوت من الطائرة أن الطيران من (انجامينا) عاصمة تشاد إلى (نيامي) سيستغرق ساعة وخمسين دقيقة.

وعندما نهضت الطائرة اتضح منظر مدينة (انجامينا) التي أكثر بيوتها ذات سقوف من الصفيح الأبيض ربما لقلة الأمطار التي تسبب الصدأ لسقوف البيوت التي تصنع من الصفيح في بعض البلدان المطيرة.

والمضيفون في الطائرة هذه كلهم من الإفريقيين والإفريقيات وقدموا غداءاً جيداً كان أحب ما فيه إليّ شرائح من سمك السلمون المدخن اللذيذ.

في مطار نيامي:

عندما حامت الطائرة فوق المطار جددت برؤيته عهداً غير بعيد إذ لم يمضِ عليه إلا ثلاث سنوات وكان منظر نهر النيل ـ نيل السودان ـ كما كان أسلافنا يسمونه وهو الذي سماه الأوروبيون نهر النيجر، وهو زاخر بالمياه مما يبعد صورة الجوع الناجم عن الجدب والمحل الذي حل ببلاد النيجر مثل غيرها من البلاد التي تسمى بدول الساحل ويراد بذلك ساحل الصحراء أي طرفها، لا ساحل البحر لأن النيجر ليس لها ساحل بحري.

وجدنا في المطار عدداً من الإخوة النيجريين المسؤولين في الجمعية الإسلامية النيجرية، وكتابة النسبة إلى النيجر كثيراً ما تختلط بكتابة النسبة إلى نيجيريا غير أن إخوتنا الذي ينطقون العربية من أهل البلاد يقولون إن الفرق بينهما يكمن في ياء واحدة تكتب الياء بالنسبة إلى نيجيريا ولا تكتب في النسبة إلى جمهورية النيجر.

كما كان في الإستقبال مندوب من المراسم هو الأخ (أبو بكر عبد الله). وممثل للسفارة السعودية في (نيامي).

وقد اعتذر الإخوة من أعضاء الجمعية الإسلامية الذين حضروا الإستقبال ومنهم الشيخ (القاسم البيهقي) الأمين العام للجمعية بأن موعد قدوم الطائرة قد اختلف عما كان عليه في الماضي. ولذلك لم يتمكن عدد من الإخوة من الحضور لأن الطائرة كانت تصل في العادة في الحادية عشرة ليلاً وأحياناً تتأخر إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ومن ذلك على سبيل

المثال أنها وصلت في الأسبوع الماضي الساعة الثانية عشرة والنصف وكان عليها الشيخ الحاج (عمر جالو) عضو المجلس التأسيسي لـرابطة العـالم الإسلامي الذي كان حريصاً على أن يكون في استقبالنا في المطار ولكنه لم يعلم بموعد وصول الطائرة.

وكنت عرفت أنه حريص على ذلك لأنني قد ودعته في مكتبي قبل السفر من مكة المكرمة وجهد في أن يعرف موعد وصولنا إلى نيامي.

والمهم ليس في الإستقبال أو عدمه فأنا من الذين لا يهمهم ذلك، بل إنني أفضل في الأحوال المعتادة ألا يستقبلني أحد، ولكن المهم فيما أعرفه عنه من خبرة في أمور النيجر، وحصافة في التصرف.

في مدينة نيامي:

أعد الإخوة في حكومة النيجر سيارة مع موظف المراسم لمرافقتنـا وأعدت السفارة السعودية مشكورة سيارة أخرى.

وأول مساوىء هذا الإستقبال أنهم أجلسونا في غرفة خاصـة داخل غرفة كبـار الزوار التي كـان فيها بعض السيـاسيين الأوروبيين إمعانـاً في تكريمنا، ولكن ذلك عزلني عن الناس، ومنعني من رؤيتهم وهم يتصرفون مع غيرهم بصفة عفوية.

ثم انتقلنا إلى مدينة (نيامي) وأنزلنا الإخوة في فندق (جاوي) الواقع على نهر النيل وهو الذي نزلنا فيه المرة السابقة وهو أكبر الفنادق في نيامي، وأجملها موقعاً وإدارته جيدة، ومرافقه في غاية العناية، والحقيقة أنه يعد مفخرة لهذه المدينة إذا ما قارناه بالفنادق التي نزلناها قبله في هذه السفرة في الكاميرون، وجمهورية إفريقية الوسطى، وهي فنادق معدودة من الدرجة الأولى - ثم حضـر إلينا طـائفة من الإخـوة للسلام ،منهـم الأخ الحصيف (غازي مجدلي) القائم بالأعمال في السفارة السعودية وهـو أعلى مسؤول

فيها لأنه لا يوجد في النيجر سفير سعودي في الوقت الحاضر. والسفير الحاج عمر جالو، وكان سفيراً لبلاده النيجر في المملكة العربية السعودية مدة خمس عشرة سنة. وذلك لبحث برنامج زيارتنا في هذه البلاد مع المراسم في وزارة الخارجية إلا أنهم أرجأوا ذلك إلى وقت لاحق.

يوم الأربعاء ٢/٥/١٤٠٥ هـ - ٢٣/١/١٩٨٥ م)

في السفارة السعودية:

هتف بنا الأخ غازي مجدلي القائم بأعمال السفارة وقال: إنه ينتظرنا في الثامنة والنصف في السفارة - وهو موعد مبكر على العمل في السفارات في البلدان الأخرى، ولكن الرئيس الحازم الجنرال الحاج (حسين كونتشي) قد ألزم الموظفين في الدوائر الحكومية بالمحافظة على أوقات العمل فتبعتهم الجهات التي تتعامل معهم على ذلك.

وكان اجتماع في السفارة معه ذكر فيه أنه تلقى مخابرة من وزارة الخارجية النيجرية أن لقائي بالرئيس (كونتشي) سيتحدد اليوم.

ثم تلقى مخابرة هاتفية ونحن عنده تقول: إن ذلك سيكون في الحادية عشرة من ضحى هذا اليوم، أي بعد حوالي ساعتين.

مقابلة الرئيس:

ركبنا سيارة السفارة السعودية مع أننا جئنا ممثلين لرابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية من حيث الواقع الرسمي. ولسنا ممثلين للحكومة السعودية كما أن معنا سيارة من الحكومة النيجرية، ولكن الأخ غازي أراد إكرامنا بذلك.

وصلنا القصر الرئاسي، وقد بقي على الموعد المحدد وهو

الحادية عشرة ثلاث دقائق فقط ولم يكن يصحبنا أحد، فإن المراسم لم تدع أحداً إلى مصاحبتنا. ولكننا وجدنا الأخ الشيخ عمر جالو ينتظرنا في قصر الرئاسة، وتبين أنه كان عند الرئيس قبل وصولنا فأجلسونا في مكتب للإنتظار قبل مكتب الرئيس وجدنا فيه فرقة من مصوري التلفزة والمصورين الصحفيين ينتظرون اللقاء.

وفي الحادية عشرة بالضبط جاء إلينا موظف يلبس الملابس الوطنية الفضفاضة الزرقاء اللون وقال: تفضلوا.

دخلنا على الرئيس فوجدناه واقفاً في انتظارنا بالبذلة العسكرية في مكتب صغير، عنده شخص واحد خرج بمجرد دخولنا فصافحنا الرئيس ومصورو التلفاز يصورون، وكنت أحمل معي مصحفاً كبيراً، وأشرطة

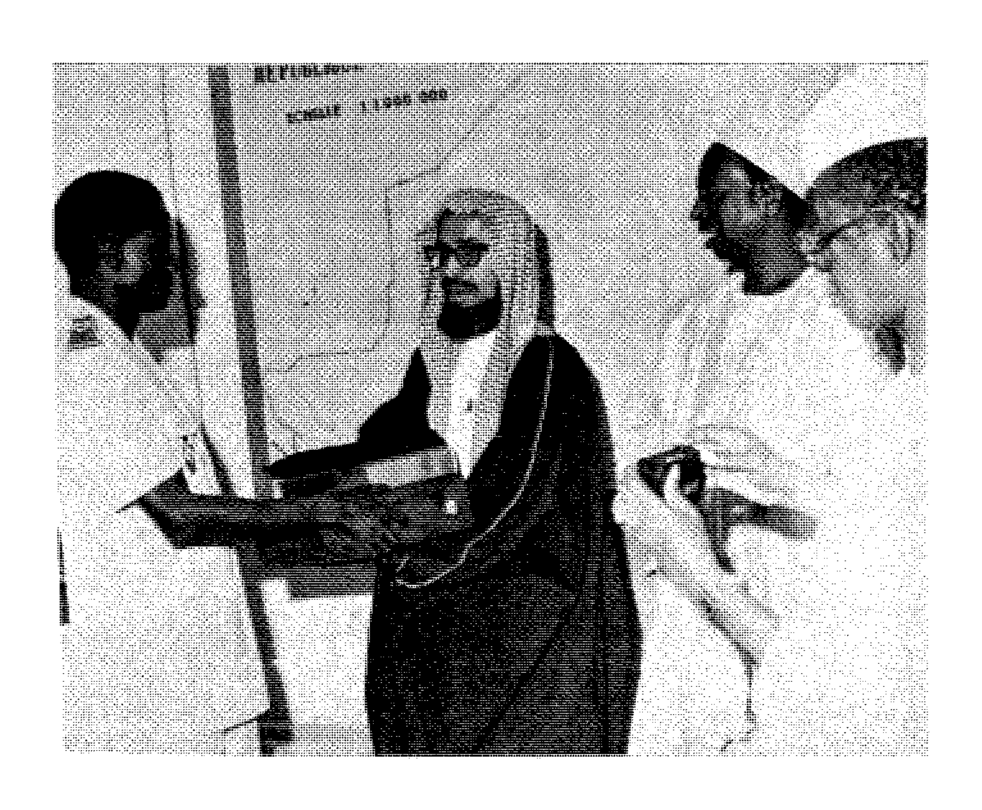


الرئيس حسني كونتشي يشير إلى المؤلف بالجلوس

تتضمن تسجيل آيات القرآن الكريم وقطعة من كسوة الكعبة المشرفة هدية للرئيس، فانتهزت الفرصة وقدمتها له قبل أن ينصرف المصورون. كما سلمته كتاباً من الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي يتضمن التحية للرئيس ويخبره بالغرض من قدومي إلى النيجر.

وحالما جلسنا أشار إلى الجميع بالإنصراف ولم يبقَ معنا سوى الشيخ الحاج (عمر جالو) وبدأت الكلام فأبديت له سروري البالغ بمقابلته لأنه هو الرئيس المسلم الحازم الذي جمع بين العمل على تحديث البلاد وبخاصة في الإدارة، وفي الوقت نفسه لم ينسَ المحافظة على القيم الروحية العريقة لهذا الشعب المسلم الكريم وأهمها القيم الإسلامية.

ثم قلت: ولذلك اعتبر أنني سعيد الحظ للقائه. وأنتهز الفرصة لأبلغه



تقديم الهدية للرئيس حسين كونتشي

تحيات رابطة العالم الإسلامي التي يضم مجلسها التأسيسي وهيئاتها الأخرى ممثلين للمسلمين في أنحاء العالم ويمثل النيجر فيها الحاج عمر جالو الحاضر معنا.

ثم قلت: إنه يقال: إن التاريخ يعيد نفسه وها آنذا رأيت قائداً مسلماً حازماً لشعب النيجر الذي هو جزء من شعب السودان الغربي ذي الأمجاد الإسلامية، ونحن لذلك نتطلع إلى أن يعيد هذا الشعب العريق الأمجاد الإسلامية السابقة في هذه المنطقة من إفريقية لأن شعب السودان الغربي قد وصل في مراحل نهضته الإسلامية فيما يسميه الأوربيون بالعصور الوسطى إلى درجة من الإدارة والتنظيم لم يصل إليها الأوروبيون في ذلك الوقت. ووصل بالأمن في بلاده حدوداً لم تستطع أن تقترب منها أوروبا أو أمريكا حتى في الوقت الحاضر.

ثم قلت: لعل أهم مظهر من مظاهر العودة الحميدة للتقاليد الإسلامية المجيدة في هذه البلاد أن الأمن مستتب هنا ولله الحمد سواء للغريب أو القريب حتى إن بعض الأجانب من الأوروبيين والأمريكيين يشعرون بالأمن في النيجر أكثر مما يشعرون به في بلادهم.

وقلت: إنني وإن كنت لا أعمل في وزارة الخارجية في الحكومة السعودية وإنما عملي في رابطة العالم الإسلامي فإنني سوف أبلغ المسؤولين في المملكة العربية السعودية موقف فخامتكم الودي نحو الرابطة بتخصيص هذا الجزء من وقتكم الثمين لمقابلتنا، وكذلك للترحيب بنا من قبل المسؤولين في حكومتكم.

وإن رابطة العالم الإسلامي وقد تيقنت من استقامة الجمعية الإسلامية في النيجر، وجديتها في العمل فإنها تتطلع إلى زيادة التعاون معها على البر والتقوى، وقد جئنا لنبحث في كيفية التعاون ما بين الرابطة والجمعية الإسلامية النيجرية.

وقد ظل الرئيس ساكتاً منصتاً لما أقوله، والشيخ السفير عبد الوهاب الدكوري يترجم ما أقوله إلى الفرنسية.

وعندما انتهيت ابتدأ الكلام فقال من بين ما قاله:

إننا شعب عريق في الإسلام كما قلت، ولذلك فإنني أتولى الإهتمام بالأمور الإسلامية حتى وزير الداخلية لا يبت بشيء يتعلق بتلك الأمور إلا بعد مراجعتي. لأن الدين الإسلامي هو تراثنا، وهو أساس ثقافتنا، ولا نريد أن يساء فهمه، أو العمل به على وجه من الوجوه. انظر إلى ما حدث في نيجيريا حيث وصلت الإساءة بالعمل بالإسلام إلى حد أن أدعى أحدهم النبوة ووجد من يتابعه على ذلك وصارت فتنة عظيمة.

وقال: حتى إيران عندما أساءت فهم الإسلام وانحرفت به أصبحت تعمل مشكلات مع جيرانها.

وقال: إن علاقتنا بالمملكة العربية السعودية هي علاقة مبدأ وليست قابلة للمساومة.

ونحن شعب فقير، ولكننا لنا مبادئنا التي لا نبيعها بالنقود مهما كثرت ومن ذلك محافظتنا على العلاقة الحميمة مع المملكة العربية السعودية...

وإنني هنا أصلي وأصوم وأتعبد، ولكنني إذا احتجت للزيادة من الخير ذهبت إلى النبع هناك إلى مكة المكرمة فازددت بأداء العمرة والصلاة في الحرم الشريف إيماناً إلى إيمان.

ولقد تأثرت كثيراً خلال زيارتي للمملكة العربية السعودية وأداء العبادات في الحرمين الشريفين.

وقال: فيما يتعلق بالظروف الإقتصادية التي ذكرتموها فإن وضعنا صعب ولكننا أحسن حالاً من غيرنا وشعبنا يجتاز ظروفاً صعبة ولكنه صابر وثابت، ويؤيدنا في سياستنا. وقال: أرجو إبلاغ سلامي وتحياتي لجلالة الملك فهد حفظه الله واعتزازي بعلاقاتنا الأخوية مع المملكة العربية السعودية.

ثم تكلم عن موضوع زيارتي فقال: لقد علمت بقدومك وأنك ستبقى معنا إلى يوم السبت، ولذلك وضعت برنامج إقامتك في بلادنا بنفسي: إنه



أثناء الحديث مع الرئيس حسين كونتشي والشيخ السفير الدكوري على يسار المؤلف يترجم بالفرنسية

لا بد من زيارة بلدة (ساي) لرؤية الجامعة الإسلامية فيها التي هي ستكون جامعة إسلامية لغرب إفريقية كلها.

كما أنني أرجو أن تزور (بلدتي) (فاندو) وهي مسقط رأسي. صحيح أن الطرق إلى هاتين البلدتين ليست ممتازة، ولكن لا بد من الصبر عليها.

ثم ذكر شيئاً كنت أتطلع إليه ولم أذكره له، وربما كان الشيخ السفير عمر (جالو) قد ذكره له وهو قوله: إنك رجل مؤرخ وقادم من رابطة العالم الإسلامي، ولا ينبغي لمثلك أن يترك النيجر من دون أن يزور مدينة (أغاديس) التاريخية ويصلي في مسجدها الجامع الذي هو أقدم مسجد في هذه البلاد.

و (أغاديس) بعيدة وإن كان يوجد خط مسفلت من نيامي إليها ولكننا سنضع طائرة خاصة صغيرة تنقلك إليها.

فشكرت الرئيس على ذلك، وقلت له: إنني أحمل معي مقداراً قليلاً من المال هدية من الرابطة إلى أحد المساجد المهمة هنا وأريد أن أبحث مع الجمعية الإسلامية في موضوعه، فقال: أنا الرئيس الأعلى للجمعية الإسلامية وأرى أن تخصص للمسجد القديم لأننا قد افتتحنا منذ عهد قريب مسجداً جامعاً جديداً في العاصمة. ولذلك نخشى أن ينصرف الناس عن الجامع القديم إذا لم يصلح ويجهز تجهيزاً حديثاً.

فقلت له: إن المبلغ قليل، فقال: حتى ولو كان فرنكاً واحداً.

وكان المبلغ الذي معي هو أربعة وخمسون ألفا وخمسمائة دولار أمريكي ولكنني لم أذكره للرئيس استقلالاً له. وكان يقوم بالترجمة من العربية إلى الفرنسية الشيخ السفير الدكوري كما سبق وهنا كررت شكري للرئيس (حسين كونتشي). واستأذنت بالإنصراف.

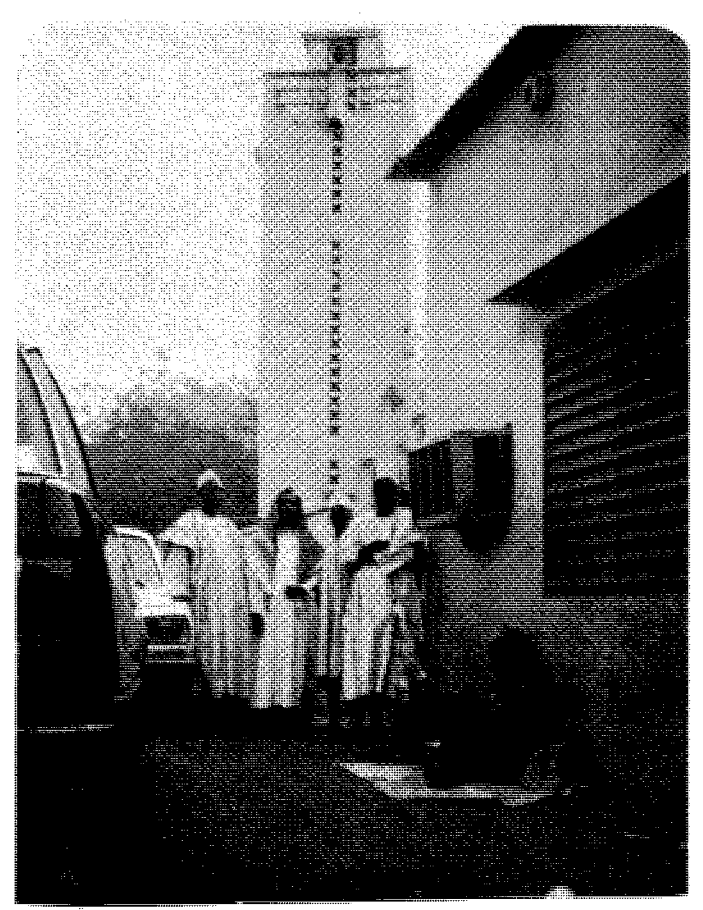
الإجتماع بالجمعية الإسلامية:

عقدنا جلسة عمل مع الجمعية الإسلامية النيجرية حضره رئيس الجمعية الشيخ عمر إسماعيل وأمينها العام القاسم البيهقي والحاج محمد بولي الرجل الثاني فيها، والحاج خالد جوبوا أمين الصندوق، والسيد محمد مباكي أمين التنظيم. والسيد (سنة سيدو جرمكوي) الأمين الإداري للجمعية.

وقد انضم إلى الإجتماع الحاج (عمر جالو) عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ومستشار رئيس الجمهورية.

وكان ذلك في مكتب الجمعية الملحق بالجامع الكبير وهو الجامع القديم في مدينة نيامي الذي سبق ذكره.

وقد استغرق الاجتماع حوالي الساعة اتفقنا فيه على أكثر الأمور التي كانت موضع البحث. وقدمت إلى الجمعية باسم الرابطة دعوة لخمسة



صورة تذكارية مع أعضاء من الجمعية الإسلامية عند أحد المساجد في نيامي

أشخاص من الجمعية تختارهم هي لزيارة المملكة العربية السعودية ضيوفاً على رابطة العالم الإسلامي، يعد لهم برنامج يتضمن زيارة الرابطة وأداء العمرة وزيارة المدينة المنورة للصلاة في المسجد النبوي الشريف، والسلام على رسول الله ﷺ ولزيارة مدينة الرياض والإجتماع بالعلماء والمسؤولين عن الدعوة الإسلامية وزيارة بعض الوزارات والجامعات في المملكة.

في مزرعة نيجرية :

شعب النيجر في أغلبه من الرعاة والذين يعملون بالزراعة منه قليل وذلك لأن البلاد كانت أزمان الخصب، وكثرة المطر مراعي هامة للماشية.

ولذلك كان لمشاهدة مزرعة صغيرة للحاج الشيخ عمر جالو عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي أثر كبير في نفوسنا إذ دعانا

الشيخ إلى قضاء ما بقي من هذه الأمسية في مزرعة له صغيرة مقابلةلمسكنه وهي على الضفة الغربية لنهر النيل (النيجر) وكانت قد بقيت في الوقت بقية قبل غروب الشمس.

كان الشيخ يحدثنا في الطريق القصير إلى مزرعته وهو يقول يبدىء القول ويعيد: كيف تكون في النيجر مجاعة، والنهر يتدفق بالمياه والأرض معطاء كما سترون؟.

إنني بذرت الذرة فأكلت منها بعد خمسة وأربعين يوماً وبذرت البطاطس فأكلت منه بعد خمسين يوماً وسوف ترون جودته. ولكن الناس هنا قد أخذوا على الكسل. وكراهية العمل. إنني أستحي لنفسي عندما أسمع الناس في بلادنا يتحدثون عن المجاعة والنهر يمر بنا مسافة أربعمائة وخمسين كيلو متراً، ونحن نترك مياهه تذهب إلى البحر، كما أنني أقول مثل ذلك لإخوتنا في تشاد الذين لديهم نهر (شاري) ولكنهم لا يستغلونه.

وصلنا إلى مزرعة الشيخ التي قلت: إنها ليست بالكبيرة فوجدنا الحارس قد بنى له كوخاً من القش مستديراً. وهذا هو شكل البيوت في الريف وفي البادية في القديم أن تكون مستديرة، ثم رأينا أكواخاً مثل ذلك ولكنها مرفوعة عن الأرض بأخشاب قال الشيخ عمر: إنها مستودعات للحبوب ترفع عن الأرض للوقاية من الرطوبة والحشرات.

وقال: إن المحصولات من مزرعتي متنوعة ولكن أكثرها هو الدخن والذرة والبطاطس إلى جانب بعض الفاكهة التي منها الموز والعمبة (المانغو). وقال: لدي في المزرعة أشجار مثمرة من أشجار المانغو عددها مائة وخمس وسبعون شجرة، وقد رأينا أكثرها مزهراً وبعضها بدأ ثمره يكبر قليلاً لأن هذا ليس بموعد نضجها، ما عدا نوعاً واحداً فإن ثمره فيه ناضج قطع الشيخ لنا منه شيئاً حمله إلينا في الفندق كما أرانا ثماراً بالغة الجودة من فاكهة (الفراولة) وقطعها لنا طرية من النبتة فذقت لها طعماً نادراً من اللذة وهي كبيرة أيضاً. أما العمية (المانغو) فإنها متوسطة.

كما زرع قطعة صغيرة من أرضه بالأرز رأينا الماء ناقعاً فوقه وطيوراً

بيضا تشبه الغرانيق واقعة فيه. وبقربهـا القماري وكنت رأيتـه في حديقـة الفندق فعجبت من كبر حجمه بالنسبة إلى النوع الذي يأتي إلى بلادنا في زمن هجرة الطيور ونصطاده فنجده سميناً لذيذ الطعم، وقد يتخلف بعضه عن الهجرة ويقيم عندنا فنسميه (القوقسي) وهو نوع من الحمام البري أي الذي لا يربى في المنازل.

وسألت الشيخ عمر عما إذا كانوا يصطادون هذه الطيور المهـاجرة؟ فقال: إن الناس لا يفعلون ذلك.

كما أرانا شجرة الكسافا عدوة الجوع في إفريقية وهي ناعمة جيدة. وهي في مثل شجرة الفلفل الأحمر الحار ولها ثمر ينمو في الأرض كما ينمو البطاطس. وإذا نزعت هذه الثمار فإنها تبدو كما تبدو جذور الأشجار الكبيرة أو كما تبدو الأخشاب غير الناعمة، ويصنع الأفارقة منه الـدقيق والدويف ويعيشون عليه. إلا أن الملاحظ أن مادته كلها من النشويات وليس فيهـا شيء من المواد الزلالية. ولذلك لا بد لمن يأكله أن يتناول أطعمة ذات مواد زلالية كاللحم واللبن والبيض وإلا أصيب بما يشبه سوء التغذية، إذا اقتصر عليه وحده لمدة طويلة.

كما أنهم يأخذون أوراق شجرة الكسافا ويتخذون منها خضرة للأكل تطبخ وتؤكل مع الطعام.

ثم أرانا الشيخ أرضاً مجاورة لأرض مهملة، وقال: هذه لفلان مدير الإدارة الحكومية الفلانية وقد أهملها كما ترون وليس فيها زراعة وهو قادر على ذلك مع أنه لو عمرها لأنتجت مثل ما أنتجت مزرعتي التي فيها أيضاً سبع بقرات سمان نشرب منها اللبن ونصنع الزبد.

ثم انتقلنا إلى مسكنه المقابل لمزرعته وهو مبني من الإسمنت على هيئة دارة (فيللا) واسعة، ذات فناء كبير، وقد طليت بلون أحمر يميل إلى الغبرة، قال الشيخ إنه اختار هذا اللون لأنه لا يبين عليه الغبار.

والغبار هنا أمر يومي بـل أحيانـاً أكثر من يـومي، لأن الجو جـاف

والطرق ليست كلها مزفلتة والخضرة ليست شاملة رغم قرب المنطقة من النهر الكبير.

وجلسنا في قاعة استقبال واسعة أسرع الشيخ عمر فأحضر إناءاً كبيراً مليئاً باللبن الذي لم يقربه الماء، وقال وهو يقربه لنا: إنه من بقرنا، تفضلوا، وشرب الشيخ الدكوري ثم شرب الشيخ عمر من الإناء نفسه. أما أنا فقد اعتذرت عن ذلك.

وفي البيت شاهدنا مسجداً صغيراً بناه الشيخ عمر من الإسمنت وهو يؤم الناس فيه الآن وقال: إن هذا المسجد كان مبنياً من الطين، وكان والدي يؤم الناس فيه وقد أعدت بناءه من الإسمنت، ولا أزال أؤم الناس فيه في الصلاة، وهو ملاصق لبيته لا يفصل بينهما إلا زقاق ضيق.

ويسمى المسجد (مسجد نغاري) على اسم الحي الذي يقع فيه.

يوم الخميس ٣/٥/١٤٠٥ هـ ؛ ٢٣/١/١٩٨٥ :

إلى بلدة نافدو:

قدمت القول بأن الرئيس (حسين كونتشي) رئيس جمهورية النيجر قد وضع في البرنامج زيارة مسقط رأسه (نافدو) وقد أمر أن تكون زيارتها في صباح هذا اليوم الخميس، وعند الصباح حضر إلينا رئيس الجمعية الإسلامية الشيخ عمر إسماعيل، ومعه لفيف من الإخوة أعضاء الجمعية، والشيخ عمر جالو ومندوب من المراسم، وقربوا سيارتي جيب قويتين بديلتين عن السيارات الصغيرة المكيفة التي كانت معنا ـ مما يدل على أن الطريق ليس جيداً.

كان يصحبني في السيارة الشيخ الدكوري والشيخ (عمر إسماعيل) رئيس الجمعية وهو يعرف العربية جيداً كما يعرفها أحد أبنائها، ويعرف من لغات النيجر الهوساوية والفولانية فضلاً عن (الجرماوية) لغته الأساسية.

أما الفرنسية فذكر أنه لا يعرف إلا قليلاً منها رغم كون البلاد كانت مستعمرة فرنسية. وقال: السبب في ذلك أن أهلنا كانوا يمنعوننا من الذهاب إلى المدارس الفرنسية خوفاً علينا من أن نتأثر بعقائد الكفار. وذكر أن والده عالم اسمه الشيخ ألفا محمد.

غير أن الشيخ جزاه الله خيراً رجل لا يحب الفضول، أو هو يرى أنني لا ينبغي أن أكون فضولياً فكان لا يجيب إلا على ما أسأله عنه مع

معرفته برغبتي في معرفة ما أمر به ـ أما سائق السيارة فهو من قبيلة الجرما وهي القبيلة الرئيسية في البلاد واسمه (موسى عثمان).

كانت مغادرة الفندق في التاسعة الآ ربعاً، واخترقت السيارة جانب المدينة من دون أن تساير نهر النيجر الذي يقع إلى الغرب من فندقنا، كما كانت قد فعلت عندما سافرنا في المرة الماضية إلى مسافة محدودة من طريق بلدة (ساي).

وإنما خرجنا مباشرة من المدينة فاخترق الطريق الإسفلتي ضاحية بعيدة من البلدة غارقة في أشجار النيم التي غرست غرساً في هذه المنطقة فحولتها إلى منطقة من غابات الأشجار المذكورة، وقد أخبرونا أن عهدهم بالنيم هذا غير قديم، بل ربما لا يزيد على أربعين سنة، ولكنه أصبح الآن مهماً إذْ جرى غرسه في أماكن عديدة من العاصمة ـ بل أصبح هو الشجرة الرئيسية المنتشرة في المدينة التي يراد منها أن تكون شجرة ظل فحسب.

ولقد رأيت مثل هذه الغابات من أشجار النيم في شمال نيجيريا، وبخاصة مدينة (صوكوتو) عاصمة الخلافة الزائلة بالفعل الباقية بالإسم هناك، لأن (صوكوتو) مثلها في ذلك مثل نيامي واقعة في المنطقة التي تسمى بالساحل ساحل الصحراء بعيدة عن المنطقة الإستوائية ذات الأمطار الغزيرة.

أما الأشجار التي قد نمت طبيعياً فهي أشجار الطلح الكبيرة الموجودة في بلادنا وبخاصة في مجاري الأودية في الصحراء. وعندما غادرنا ضواحي المدينة كلية كانت هناك أبقار عجاف وبيوت كالتي رأيتها منتشرة في نيجيريا وهي التي تكون محاطة بأحواش حيطانها من أعواد الشجر ويكون في وسطها بيتان أو أكثر على شكل مخروطي. وغنم صغير أحمر وأبيض يرعى مع قلة المرعى هنا، فلا عشب وإنما هي بقية الأشجار الصحراوية الهامدة.

ومررنا بمخفر للشرطة كانوا قد وضعوا فيه سلسلة مثبتة برباط في جانبي الطريق. فأخبرهم المرافقون بنا، وبخاصة أن سيارتنا عليها العلم الرسمي ولكنه مطوي، وقالوا للشرطة: هذه سيارة الرئيس، وقد لاحظت

على لباس الضابط إشارة الهلال والنجمة شعار المسلمين في مهاجرهم - وهذا المخفر أو المركز للشرطة بجانبه حانوت من الأعشاب والقش من أجل البيع على من يقفون من راكبي السيارات هنا. وليس هذا هو الذي شد انتباهي وإنما هو ما رأيته مما كان موجوداً عندنا قبل فترة وانمحى في الواقع أو كاد، كما انمحى من ذاكرة الجيل الجديد من الأولاد ألا وهو أنهم أحاطوا مكاناً للصلاة بجانب أرض المركز بحجارة صغيرة في مثل حجم اليد لا تمنع ماشياً من إنسان أو حيوان، وإنما هي لكي تبين للناس أن هذا المكان مكان طاهر للصلاة، وحتى لا يتخذ طريقاً وأداروا هذا الحصى حول المسجد وكذلك المحراب قد أحاطوه بهذه الحصى.

وكنا مثلهم نستعمل هذه الطريقة في مراكز الشرطة في خارج المدن، وعند موارد المياه، أما الآن وقد منّ الله علينا بهذا الإزدهار الإقتصادي فإننا أقمنا المساجد المبنية بالإسمنت المسلح ولله الحمد.

ثم مررنا بوادٍ صغير فيه خضرة قال الشيخ (عمر) إنها من السقي بالآبار.

ثم أصحر الطريق - أي دخل في الصحراء الخالية التي هي مثل صحرائنا لا تكاد تختلف عنها في شيء، وقد زاد المنظر صحراوية منظر حمر - جمع حمار - عليها كسر من الخشب الذي يستعمل في الوقود.

ونحن نسير الآن جهة الشمال الشرقي عن العاصمة، والسائق صحراوي يسرع بسيارته لأنها كبيرة قوية والطريق مزفلت زفلتة جيدة.

ومر الطريق فوق جسر على أحد الوديان التي ليس فيها إلا الرملِ كما يكون في بلادنا الصحراوية ذات التربة الرملية.

أما الجو فإنه جيد، فهو كليل تهامة الذي ليس فيه حر ولا قر كما في حديث أم زرع. فقد أغلقنا زجاج السيارة وهي مكيفة ولم نشعر بالحر.

قرية باكاي:

مررنا بمنازل قرية صغيرة قال الشيخ (عمر): إن اسمها قرية (باكاي)

أغلبها ذات سقوف مخروطة الشكل من الأعواد والقش. ولم أرَ فيها من بيوت الطين إلا واحداً ربما كان ذلك لكونها من منازل الرعاة في الأصل. أو بنيت لفترة من فترات السنة. كما اجتاز الطريق بعدها وادياً صحراوياً ليست فيه عمارة ولكن الأشجار التي فيه من الطلح ونحوها هي أكثر نضارة أو لنقل أقل جفافاً.

وكان ما شد انتباهي رؤية ركب على الإبل وهم على أربع ركاب يغذون السير (يدرهمون) أي يسيرون بسرع معتدلة، وربما كانوا يغنون كما كان أباؤنا يفعلون عندما يكونون على ظهور الإبل إن لم نقل يحدون، فالغناء هنا هو الحداء.

ولقد ذكرني هذا المنظر بمنظر رأيته قبل حوالي تسعة أشهر في مكان بعيد جداً عن هذا المكان، ولكن تجمعه به صفة الصحراوية أو الشبه صحراوية، وهو الصحراء البعيدة في الشمال الغربي من الصين الشعبية في مقاطعة كانسو حيث يعيش الناس على ضفاف النهر الأصفر الذي يخترق تلك الصحراء فيكون لأهلها مثل النيل لأهل مصر الذي لولاه لكانت البلاد المصرية صحراء خالصة.

إلا أن الفارق هنا غير البعد أن الركب النيجري هذا مؤلف من إبل كإبلنا العربية ذات السنام الواحد على حين أن ركب الإبل الصيني كان مؤلفاً من إبل ذات سنامين.

ويومها عندما كنت في الصين وكنت رئيس وفد حشدت له الصين الشعبية الكثير من مظاهر المجاملة، ومنها أن سيارتي كانت تتبعها خمس سيارات، فقد طلبت إيقاف الركب ونزلت أعدو ألتقط صورة لهذا المشهد الغريب في صحراء الصين البعيدة.

وقد أخذ علي أحد إخواني من أعضاء الوفد ممن ليست للمعرفة عندهم أهمية كبيرة هذا الفعل ذاكراً أنه ينافي ما زعمه وقاراً.

ولقد هممت أن أوقف السيارة والسيارة التي بعدها والتقط صورة لهذا الركب النيجري لولا أنني خفت من ضيق الوقت.

حمد الله:

هذا هو اسم قرية أقبلنا عليها فحدثنا بأمرها الشيخ عمر إسماعيل، ولم تكن زيارتها موضوعة على البرنامج، ولكنني طلبت أن أراها، ورؤيتها هكذا بدون تهيؤ سابق هي أكثر فائدة. واسم (حمد الله) للبلدان والقرى في منطقة السودان الغربي هذه ليس مستغرباً، بل له سابق في التاريخ ومن ذلك اسم الإمارة التي كانت موجودة في جزء من مالي وسميت عاصمتها (حمد الله). ويطمح الماليون الآن إلى إعادة مجد مدينتهم (حمد الله) التي اشتهرت بالعلم والعلماء، حتى قال لي رئيس جمهورية مالي العقيد موسى تراوري) إنه كان في (حمد الله) يوماً من الأيام أكثر من أربعة آلاف حافظ للقرآن الكريم.

لذلك أحببت الإطلاع على (حمد الله)، هذه النيجرية حيث لم يتيسر لي الإطلاع على (حمد الله) المالية.

البلدة واقعة على الخط الإسفلتي وإن كان القسم القديم داخلاً عنه قليلاً والبيوت التي على الشارع العام بعضها من الطين، وبعضها بلبن الإسمنت ولكنها مطلية بطلاء أحمر وذلك لكيلا يعلق بها الغبار.

كان أول من استقبلنا من أهل القرية رئيس القبيلة فيها الأخ إبراهيم طاهر محمد وهو من قبيلة جرما يعرف العربية لأنه كان مدرساً. وهو ذو مكانة هامة في القرية حتى إنهم يسمونه (أمير) وهي كلمة الأمير بالعربية. ومظهره يستحق ذلك فهو نظيف الثوب والبدن، وجيه الطلعة، وعقليته مستنيرة مما ظهر لي من محادثته.

مسجد حمد الله:

رأيناه مسجداً يستحق العناية به بجدارة فهو واسع جداً بالنسبة إلى مساجد القرى في هذه البلاد ومبني بناءاً قوياً بالإسمنت المسلح، على نظام هندسي جيد قالوا: إن الذي قام على بنائه وزير التجارة في النيجر وكان مديراً لأحد البنوك المهمة وهو من أبناء هذه البلدة.

وكان في مكانه مسجد صغير من الطين وأخبرني الشيخ (عمر) رئيس الجمعية الإسلامية أن هذه المدينة اشتهرت بشيخ من العلماء الصالحين اسمه: (الفا بونكانو) والفا في لغتهم: اختصار لكلمة (الفاهم) العربية من الفهم يعني العالم، لذلك أرانا القوم قبره قريباً من فناء المسجد قد دفن دفناً شرعياً ليس عليه بناء ولا يرتفع عن الأرض إلا بمقدار شبر ومحوط عليه بطين قصير أقصر من الشبر.

وقد أخبرني رئيس القبيلة أو الأمير (ابراهيم طاهر) أنهم يريدون أن يبنوا عليه بناء فأوضحت له أن ذلك لا ينبغي، لأنه يخالف السنة.

وهو على حالته هذه مطابق للأوامر الشرعية، ولا ينبغي أن يحدثوا فيه شيئاً.

ثم حضر إمام المسجد (نوح أمير) ورجل آخر أسموه القاضي وهو قاضٍ غير رسمي بمعنى ان الأهالي ارتضوه حكماً بينهم، والحكومة تؤيد ذلك، ولكنها لا تصرف له راتباً، وقد تجمع بعض أهالي القرية ورأيت بيتاً من الطين يهدمه العمال ربما ليقيموا عليه بناء بالإسمنت كما كنا نفعل، وعمالاً يحفرون في الطريق ليزودوا المسجد بالكهرباء، ونساء وأطفالا تجمعوا وهم نظيفوا الثياب، حسنوا التغذية فيما يظهر على وجوههم.

ورأيت التبن والقصب مرفوعاً فوق سطوح بعض المنازل، فتذكرت أنني كنت قد رأيت مثل ذلك بكثرة في الصين وفي إقليم تركستان الشرقية الذي أسماه الصينيون (سينكيانغ) وقد ذكرت ذلك في كتاب: «في مهد الترك».

مواصلة السير:

تركنا قرية (حمد الله) ولم نترك (حمد الله)، وإنما جددناه وكررناه على أن يسر لنا زيارة هذه البلدة المسلمة.

ورأيت قطعة من الصحراء أحسن منظراً من غيرها إذْ فيها بعض الحشائش الجافة مما يدل على أنها كانت قد أمطرت إبان فصل الأمطار،

ولذلك كانت فيها أبقار ترعى لا بأس بمظهرها ومعها راعيتها في ثياب سود وهي سوداء.

ولا يزال الطريق إزفلتياً جيداً، حسن التعبيد، مما يدل على قوة الإدارة في هذه البلاد، لأن مجرد المحافظة على المشروعات النافعة في البلاد النامية يعتبر جديراً بالتسجيل كما هو معروف.

ومن المناظر في الطريق صبي أسود على حصان أبيض، وامرأة قد شدت طفلاً على ظهرها كما تفعل سائر الإفريقيات وأمسكت بيدها طفلاً آخر وهي توسع الخطى في الطريق. وحزم ـ جمع حزمة ـ من كسر الخشب المعد للوقود، قد وضعوه على الطريق بمثابة العرض للبيع. ولا توجد فاكهة على الطريق كالتي توجد في البلدان المطيرة ومنها إفريقية الوسطى التي كنا فيها قبل النيجر.

ومررنا ببئر ارتوازية حولها خضرة قليلة ولكنها جيدة فعرفت أهمية حفر الآبار في بلاد المراعي كالنيجر، وهذا ما فعلته المملكة العربية السعودية حين قامت بحفر آبار عديدة في أنحاء من النيجر مساعدة أخوية وإسهاماً بمقاومة النقص في مياه الشرب للماشية في هذه البلاد.

كما رأيت حافلة واقفة وهي تحمل ركاباً بل هي مزدحمة بهم، وهي على حالة من المظهر الجيد يقل نظيرها حتى في الدول الإفريقية الغنية التي كثيراً ما يرى المرء فيها أن الناس قد يتنقلون أحياناً بسيارات الشحن. وقد وصلنا منطقة قد تكاثرت فيها الأشجار الصحراوية وهي بهذا أفضل منها في الأماكن المعتادة من صحرائنا ومن الصحراء الموريتانية.

أما المواشي هنا فإنها قليلة وقد أخبرونا أن السبب في ذلك هو المحل والجدب الذي حدا بالناس إلى أن يذهبوا بمواشيهم جنوباً، قالوا: إنهم وصلوا حتى إلى (توقو) طلباً للرعي، وعندما سألتهم عن موقف الدول الإفريقية المجاورة التي يصل إليها الرعاة بمواشيهم أجابوا: بأنه موقف جيد، وإنهم لا يضعون أية عراقيل على رعي هذه المواشي في بلادهم.

فقلت لهم ما قاله لي أحد الأعراب في موريتانيا وقد رأيته مع ماشيته

في السنغال: لقد جئنا إلى السنغال مع مواشينا فراراً من المحل الذي حَلَّ بموريتانيا فالأفارقة قوم طيبون لا يمنعوننا من ذلك.

ومن الأشياء التافهة ولكنني فطنت إليها بحكم المهنة كما يقال، هو أنني قد شكوت كما شكا غيري من الناس من الحمير التي تبقى سائبة في طريق السيارات السريعة. وذلك لزهد الناس في بلادنا بالحمير، وإهمالها حتى يستطيع من يشاء أن يأخذ منها ما يريد ولكن أين من يريد ذلك؟.

وذلك أن بعضها وهو ما نسميه بالأزرق اللون وهو الرمادي الغامق قليلاً قد تقف في الطريق في الليل، ولونها لا يبعد عن لون الزفت كثيراً، فلا يفطن لها السائق، فتقع حوادث كثيرة بسبب ذلك.

أما هنا فقد خفض السائق بسرعة سيارته من دون سبب واضح، ثم تبين أنه رأى حمراً زرقاً بعيدة واقفة على الطريق.

ولفت نظري أيضاً بعير أقمر وهو الأبيض بياضاً غير ناصع يرعى وحده وهو مقيد أي أن قائمتيه الأماميتين مربوطتان بقيد قوي لئلا يبعد كثيراً.

بلدة نافدو:

عدلنا من الطريق الإسفلتي من عند قرية اسمها (بالي يارة) أي: سوق يارة، وهي لفخذ من قبيلة الجرما الكبيرة في البلاد.

وبقيت علينا خمسة عشر كيلومتراً هي ترابية معبدة، أي مرصوصة ولكنها غير مسفلتة، والتعبيد بعد إصلاح الطريق ورصفه بمادة قوية مهم هنا لأن المنطقة منطقة رمال مستوية أي ليست بكثبان متحركة. ولذلك لا تستطيع السيارات أن تقطعها بسهولة من دون تعبيد.

وعندما كنا نسير في هذا الطريق الترابي رأينا قطعانا من الأبقار الجيدة، ونسوة من المواطنات بعضهن راكبات على حمير بملابسهن الوطنية الأكثر شيوعاً في الوقت الحاضر وهي الفوطة التي تشد على الوسط وتصل إلى القدم فوقها قميص دون أكمام في أكثر الأحيان.

أما الحجاب بمعنى تغطية الوجه فإنه غير موجود أصلاً. ولكن التبرج قليل.

وصلنا بلدة (نافدو) مسقط رأس الجنرال الحاج حسين كونتشي، رئيس النيجر بعد العاشرة والنصف بقليل. ومعنى اسمها؛ الموضع المرتفع بلغة الجرما. ووجدنا في الإستقبال حشداً كبيراً من أهل البلدة عليهم الملابس الوطنية الفضفاضة، وبعضهم كان يرتدي الزي العربي وعلى رأسهم الأخ الأكبر لرئيس الجمهورية (الفا عمر) الذي كان يرتدي الملابس الوطنية المميزة النظيفة، وهو نفسه وجيه المنظر أقرب إلى منظر سكان البلدان العربية وبخاصة مع لحية له خفيفة لولا اللون، وأكثر منه تميزاً بالملابس إمام المسجد (أيوب دوحي) لأنه كان يرتدي فوق ثيابه برنساً مغربياً يتدلى غطاء الرأس فيه فوق رقبته من أن الجو حار بالنسبة إلى لبس البرانس ولكن هذه عادة قديمة لأهل السودان الغربي. وبخاصة منهم أئمة المساجد.

بعد السلام العام على هؤلاء الإخوة تقدمنا الأخ (عمر) إلى بيت مجاور للمسجد جهة الغرب من ميدان يقع المسجد في شرقيه، فدخلنا منه إلى فناء واسع مكشوف في حديقة نضرة من أشجار ظل وزهر، ثم أجلسنا في قاعة داخلية على مقاعد حديثة وفيرة.

تكلمت في الجلسة فقلت: إنني مسرور لزيارة هذه البلدة التي كان لها فخر إنجاب الرئيس العظيم الحاج الجنرال (حسين كونتشي) وحييتهم بإسم رابطة العالم الإسلامي، فرد الأخ (عمر) على ذلك بكلمة قصيرة منها قوله بعد الترحيب المعتاد: إن زيارتك تقوي معنويات المسلمين.

وقد حضر هذا الإجتماع طائفة من كبار القوم منهم نائب محافظ المنطقة (محمدياندا). وقدمت هدية للأخ عمر هي تسجيل لتلاوة القرآن الكريم وساعة يدوية وكتباً إسلامية باللغة الفرنسية.

حديث عن بلدة نافدو:

بقينا فيَ هذا المكان فترة من الوقت في حديث عام في شؤون المسلمين وحديث خاص عن هذه البلدة، وحالتها في القديم، قال أخو الرئيس وزاد عليه أو أيده بعض كبار الحاضرين من أهل القرية: إن سكان بلدة (نافدو) هذه يبلغ عددهم خمسين ألف نسمة وأهلها كانوا يمتهنون الفلاحة، وكانوا في الوقت نفسه يربون الماشية على المراعي التي كانت كثيرة متوافرة قبل المحل والجدب، وكانت المنطقة ـ كما قالوا ـ مخصبة جداً قبل السنوات العجاف مما يسمى بالجفاف التي بدأت عام ١٩٧٠ م قالوا: كانِ الحصاد ممتازاً قبل ذلك. هذا تعبيرهم ويريدون به أن المطر لا يخلفهم في العادة. غير أنه قد مضى الآن على بداية سنوات الجدب والمحل خمس عشرة سنة.

بل قال الأخ عمر: إنه كان في القديم غير الموغل في القدم مما يعرفه كبار السن أن كانت هناك وديان في المنطقة تجري بالماء ولكنها الآن جفت واضمحلت.

اجتماع في المسجد:

عدنا إلى مشاهدة جامع البلدة وقد احتشد فيه عدد من الأهالي، وهو مبني بالإسمنت المسلح قبل ثلاث سنوات فقط تولى رئيس الجمهورية بناءه، هذا وأول ما يراه المرء منه بل أعلى ما في المدينة من أبنية صومعتا المسجد أي مئذنتاه وهما مربعتان على طراز المآذن الأندلسية من حيث الشكل وهو الطراز الشائع في السودان الغربي الذي تؤلف جمهورية النيجر جزءاً ثقافياً وتاريخياً منه.

والمسجد مزود بمراوح كهربائية وإضاءة جيدة ومفروش بفراش جيد. وقد ألقيت في الإخوة المسلمين المجتمعين في هذا المسجد كلمة أوضحت فيه السبب لزيارتنا لهذه البلاد، وأهداف رابطة العالم الإسلامي، فرد عليها رئيس الجمعية الإسلامية بالنيابة عنهم. ثم تقدم الشيخ (عمر

جالو) جزاه الله خيراً فذكرني بخير عندهم في كلمة قصد بها التعريف بشخصي الضعيف.

وقد أسرع الأخ الشيخ القاسم البيهقي الذي كان من جملة المرافقين أيضاً وهو يعرف حرصي على مطالعة الكتب والمخطوطات أسرع يريني مصحفاً مكتوباً باليد موضوعاً في هذا المسجد وهو بالخط السوداني الشبيه بالخط المغربي وما هو به، وسودانيته منسوبة إلى السودان الغربي (مالي وما قرب منها الآن).

وتبين أنه قديم الخط إلا أنه غير مؤرخ، وذكروا أنهم قد اقتنوه قريباً. ووضعوه في خزانة من المسجد أراني إياها مقسمة إلى ركنين من أركانه وتتضمن مصاحف من طبعات نفيسة مزوقة كانت قد أهديت للرئيس حسين كونتشي في فترات مختلفة فأمر بوضعها في هذا المسجد ومصحفاً مخطوطاً آخر ولكنه حديث الخط، وعدة كتب مطبوعة.

وبعد ذلك انتقلنا إلى مزرعة قال الأخ عمر إنها أنموذجية في البلدة، ولم أجدها كذلك، بل هي أقل من ذلك بكثير ولكن الجودة أو ضدها هي أمر نسبي في البلدان المختلفة.

وبهذه المناسبة أخبرونا أن الغلة الرئيسية التي كانوا يزرعونها في هذه المنطقة هي الدخن، وهو كان مع الذرة الطعام الرئيسي لأهل البلاد.

وليس في هذه المزرعة ما يسترعي الإنتباه، بل ليس فيها ما يستحق الذكر.

وكان مسك الختام لهذه الزيارة الحافلة بالكلام طعاماً من جيد الطعام. كان أغرب ما فيه ما نسميه بالعربية الدجاج الحبشي وهو نوع من الدجاج في مثل حجم دجاج البيوت، ولكنه يكون برياً ومستأنساً وهو بطبيعة الحال غير الديك الرومي. وقد رأيت ترجمة تسميته في بعض اللغات الأوروبية بدجاج الغابات. ومعه لحم من الدجاج الأهلى كل صنف على حدة.

ومع ذلك أطباق أخرى لم أعرف أن القوم قد اعتادوا على تقديمها في الطعام في مثل هذه البلدة النائية عن المدينة منها لحم الغنم مع الأرز.

أما الفاكهة فإنها كلها من فاكهة بلادهم، وألذ ما فيها وأحبه إليّ هو البطيخ الأصفر (الشمام) والبطيخ الأخضر (أي ما نسميه في الحجاز الحبحب. وأما الماء فإنه معدني في قوارير عديدة.

وفي الساعة الواحدة والنصف ظهراً كنا نودع الأخ (عمر كونتشي) جزاه الله خيراً. وكنا ندعو له أن يكون هذا الوداع إلى لقاء في أشرف البقاع في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكنا بذلك نودع بلدة (نافدو): المكان المرتفع مع أننا لم نشعر بارتفاعه. وقبل أن نودعها ولمناسبة الحديث عن الأخ الأكبر للرئيس يجدر بنا أن نذكر هنا ما أخبرنا به الإخوة المرافقون من أن لرئيس الجمهورية الأخ حسين كونتشي هذا الأخ الأكبر عمر وأخاً توأماً له اسمه (حسن)، فكان اسم الأخوين (حسناً وحسيناً) ولذلك لا ينبغي أن يكتب اسم الرئيس (سيني) بحذف الحاء كما ينطق بعض العامة هنا باسم حسين. وقد توفى حسن في حادث سير. وللرئيس أيضاً أخ أصغر اسمه أحمدو كونتشي.

وبقيت كلمة لا بد منها في معرفة معنى كونتشي: اسم أسرة الرئيس فهو بلغة الجرما (المصارع).

ولقد صارع الرئيس خصومه على السلطة فصرعهم فكان جديراً بهذا الإسم وصفاً ومعنى.

وشيء تافه أيضاً قد يحسن ذكره وهو أن الأخ عمر قد زودني بهدية من بلدة (نافدو) هي قماش منسوج على هيئة البسط التي تفرش في الأرض إلا أنهم الآن أخذوا في هذه البلاد يعلقونها على الجدران على اعتبار أنها من الصناعات الوطنية الخالصة، وفيها نقش بالخيوط خاص بهم ومعها جراب يشبه (القراب) للخنجر، وهو وعاء لها من الجلد يزين بالسيور

الملونة، ويعتبر من الصناعات التقليدية للطوارق أهل هذه البلاد، وكانوا يعلقونه في صدورهم.

وعدنا مع الطريق نفسه الذي جئنا منه فاخترقنا عند الوصول إلى العاصمة حياً سكنياً حديثاً متسعاً اسمه (حي الملك فيصل) سموه بذلك لأن الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله كان قد أمر ببنائه لهم مساعدة من المملكة، فصار مساكن لكبار الموظفين كما سبق ذكره.

أصيل النيجر:

بعد الغداء في مطعم الفندق الفاخر، ومن طعامه النظيف الجيد والإستراحة في الغرفة، كانت استراحتي أيضاً على قلم أسود به هذه الصفحات التي تقرأها الآن، وكان المكان، بل والسكان مما يغري بالكتابة، فنسيم الأصيل، حنون عليل، على شط النيل: نيل إخوتنا السمر لا نيل أهل مصر.

إلا أنه عامر بقوم حمر، جاؤوا من بلاد الثلج والقر، وخلعوا ثيابهم، ليغيروا إهابهم يصبرون في ذلك على حر الشمس التي لا نستطيع إلا أن نفر منها، ويسترخون على زقزقات الطيور، وصرصرات القماري.

أما أنا فقد استغرقني بعد ذلك منظر الشمس وهي تهم بالغروب وقد تقنعت بقناع شفاف من غبار الجو الجاف فصرت تخالها إذا نظرت إليها بدراً منيراً، إلا أنك لا تدري كيف صار هذا البدر كبيراً، وإن كنت تعرف أنه لا بد له من الأفول، وأنه سيزول إذا لم تبادره بصورة.

يوم الجمعة ٤/٥/١٤٠٥ هـ ـ ٢٥/١/١٩٨٥ م:

إلى الصحراء الكبرى:

مدينة (أغاديس) تعتبر من المدن النيجرية الهامة وفيها كما قال الرئيس (حسين كونتشي) أقدم مسجد في بلاد النيجر.

وهي محطة للقوافل القادمة من شمال القارة الإفريقية وبخاصة من الجزائر. وكانت عاصمة الطوارق أولئك القبائل التي يرجع أصلها إلى البربر كما قيل.

وهي إلى هذا وذاك عاصمة صحراوية عريقة، وإن كان أهلها ليسوا كسكان الصحارى الأخرى سُمْراً أو حمراً، وإنما هم مختلطون ما بين عرب وطوارق من السمر الأصلاء وحوس وهم (الهوسا) من السود العقلاء.

فإن الدين الإسلامي الحنيف يجمع شمل الجميع فيتآخون، بل يجتمعون ويتعاضدون، وربما يتصاهرون فتنصهر أنسالهم كما ينبغي أن يكون عليه المسلمون.

وهي بعد ذلك مهمة عندي لوقوعها في الصحراء الكبرى، وهي فيها بمثابة الواحة مثلها في ذلك مثل بعض الأماكن في قلب جزيرتنا العربية، وأنا أريد أن أراها وأقارن ما بينها وبين بلادنا.

وصل المرافقون إلى الفندق قبل صلاة الفجر، بل قبل طلوع الفجر

وكان أكثرهم بكوراً الأخ السفير الحصيف (عمر جالو)، وتأخر بعضهم، وكان من المقرر أن يكون الطيران في الساعة الخامسة غير أن الساعة صارت السابعة والربع ولم نتحرك من الفندق فظننت أننا قد نحتاج إلى ساعة للتحرك، ولكننا ركبنا السيارة فقصدت الطائرة رأساً من دون آن تمر بمبنى المطار، أو تتلبث فيه.

رأيت الطائرة صغيرة ولكنها عسكرية جيدة المظهر، قد طليت بالطلاء العسكري المموه. وفيها ستة مقاعد لستة ركاب مع مقعد أمامي للطيار ومساعده.

ركب فيها مرافق قالوا: إنه من المراسم، وهو غير الأول فهذا عسكري كما رافقنا الشيخ عمر جالو والأخ (القاسم البيهقي) الأمين العام للجمعية الإسلامية.

وتبعد المسافة ما بين نيامي ومدينة أغاديس بالطريق البرية ألفاً وسبعين كيلو متراً فهي كالمسافة تقريباً ما بين الرياض والجوف. غير أن الطيار التفت إلينا عند بدء الطيران وقال: إن مدة الطيران ستكون ثلاث ساعات كاملة.

والطيار فرنسي ومساعده نيجري، ويتوليان قيادة الطائرة مجتمعين وظاهر من صنعهما أن النيجري المساعد هو في طور التمرين. ولكن وجوده في الطائرة مما يجلب الطمأنينة إذ يكون هناك من يستطيع الهبوط بالطائرة فيما لو احتاجت إلى ذلك، ولا يكون الأمر فيها كما كان في طائرة صغيرة ركبت فيها من بلدة (بورت فيلا) عاصمة جزر (واناواتو) التي كانت تسمى (جزر هبريدز) في القديم، في جنوب المحيط الهادىء إلى بلدة (هونيارا) عاصمة جزر سليمان في منطقة جنوب المحيط الهادىء نفسها، وقد استغرق طيرانها بين المدينتين ساعتين ونصفا، ولم يكن في تلك الطائرة المروحية الصغيرة إلا طيار واحد قد اشتعل رأسه شيباً فصبغه صبغاً غير متقن. وكنت آنذاك أنظر إلى مقعد مساعد الطيران بجانبه خالياً والطائرة تسبح في لجة

فضائية فوق السحب العالية التي تغطي لجة المحيط الهادىء أكبر بحار الدنيا وأكثرها عمقاً فأشعر بالقلق الشديد.

بدأ الطيران إلى أغاديس في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين. وكان أكثر ما ضايقني في الطائرة ضوضاء محركيها، وشيء من القتام في الجو في هذا الصباح الصحراوي الجاف. وهو غالباً ما يزول بعد أن ترتفع الشمس. وقد خف بعد ذلك بالتدريج ثم زال، وكان جو الصحراء خالياً من أي نوع من الغيوم، لأن الفصل هنا هو فصل جاف لا يكون فيه عندهم غيوم فضلاً عن المطر في العادة حتى إن الشيخ عمر جالو حدثني أنه وقومه كانوا يعجبون إذا سمعوا أول مرة أن المطر يكون في سوريا ولبنان في الشتاء، وقالوا: الشتاء لا يكون فيه مطر عندنا وإنما مطرهم في آخر الصيف وأول الخريف. وهو ما يسميه فعلاً أهل السودان الشرقي بالخريف.

ومنظر الصحراء من الطائرة هو المنظر الهامد لا ترى فيه حياة أصلاً لا من حيوان ولا نبات، وإنما هو الخلو التام من ذلك حتى السماء خالية من أي قطعة من الغيم أو هو الفراغ التام في الأرض والجو. وحتى الكلام كان يصعب داخل الطائرة بسبب شدة ضوضاء المحركين، ومن الغريب في أمر هذه الطائرة أن الطيار لم يدخل عجلاتها إلى مكانها من جسم الطائرة وإنما بقيتا متدليتين تحتها حتى وصلنا (أغاديس) وكذلك الأمر في العودة.

وامتد الوقت من دون أن يتجدد شيء في الرحلة حتى صوت المحركين كان رتيباً على رغم شدته. إلّا ما كان من أمر أشكال غريبة قد رسمتها الرياح فوق رمال الصحراء، ووديانها الترابية، وهي أشكال يخيل إليك إذا رأيت غرابتها أنها قد رسمت رسماً، ولقد حاولت التقاط صورة لبعضها ولكنني أحجمت عن ذلك لأنني سبق أن التقطت صوراً لأرض شبيهة بها من طائرة ذات محركين مروحيين أيضاً كنا ركبناها ما بين (باماكو) عاصمة مالي وتنبكتو في شرقي مالي فلم تكن واضحة بسبب استقامة سير الطائرة ووقوف زجاج نوافذها، مما يمنع تصوير ما يكون أسفل من الطائرة بوضوح.

ثم رأينا علامة ربما تكون هي الوحيدة على الحياة الممتدة في وسط هذه الصحراء المغبرة، ألا وهي الخط الأسفلتي الذي يمتد أكثر من ألف كيلو إلى مدينة أغاديس من العاصمة (نيامي) ثم يتجاوز (أغاديس) ممتداً أيضاً وراءها قاصداً الحدود المشتركة ما بين الجزائر والنيجر، ومن الحدود الجزائرية يستمر هذا الطريق الإسفلتي إلى مدينة الجزائر وهو كذلك في أكثر الصحراء النيجرية لا يمنعه من الإمتداد إلا قطعة لم تزفلت بعد في جمهورية النيجر نفسها.

والطائرة آخذة في الإتجاه الصحيح إلى أغاديس وهو الشمال الشرقي. ولقد استمر أزيز المحركات فآذى آذاننا وتذكرت أن الطائرات كانت تحمل في القديم قطناً يضعه الراكبون في آذانهم ولكنه غير موجود فوضعت قطعة من ورق معقم.

وقد مضت أكثر من الساعتين الآن ولم أرَ أية قزعة من الغيم لا من الخفيف ولا من الثقيل، ولا من البعيد ولا من القريب، وهذا غريب قليل الحدوث في بلادنا العربية، إذّ غالباً ما يكون هناك شيء من الغيم ولو خفيفاً في إحدى المناطق التي تمر بها الطائرة في هذه المدة الطويلة بالنسبة لطيرانها.

وحتى مناظر الصحراء تحتنا فإنه يكاد يصعب التمييز بين الأراضي الرملية المستوية والأراضي الصحراوية أو الطينية لأن لون الأرض أغبر مائل إلى الحمرة.

ثم شعرنا بشيء من البرد في الطائرة لأننا ذاهبون جهة الشمال، والفصل شتائي في النصف الشمالي من الأرض.

وقد صمت القوم جميعاً لأنه لا جديد في الرحلة يستدعي الكلام، وإنما نعسوا على صوت الطائرة الرتيب.

الدهناء الإفريقية:

الدهناء أرض رملية، بل ليس فيها إلا الرمال واقعة في شرقي

المملكة العربية السعودية ولا يوجد فيها ماء، ولذلك ضربت العامة المثل بظمأ الدهناء كأنهم بذلك يسيرون على خطى العرب الفصحاء لأنهم أيضاً كانوا يضرب المثل بظمأ الدهناء، وقلة الماء فيها ـ حتى إن العرب القدماء ذكروا في خرافاتهم عن لقمان بن عاد وقوته الجسدية الخارقة أنه كان إذا نزل أرضاً حفر بإصبع قدمه فأخرج منها الماء إلا الدهناء والصمان فإنهما أعجزتاه.

والصمان بجانب الدهناء من جهة الشرق ولم يعجز الصمان المتأخرين من بني قومنا ذوي القوة الجسدية المعتادة، فاستنبطوا فيه آباراً وركبوا عليها آلات رافعة، فزال عنده ضرب المثل في الظمأ ولو رآه (لقمان بن عاد) لما اضطر إلى أن يحاول حفر الماء فيه بأصبع قدمه سواء أكان قدمه ذلك حقيقياً، أم أنه قوة له من قوم ذوي عمل يرافقونه.

ولقد ذكرت الدهناء العربية ورمالها عندما رأيت صحارى رملية أخرى في العالم ومنها على سبيل المثال الأرض الرملية في مقاطعة (كانسو) ومقاطعة (ين تشا) شمال غربي الصين الشعبية.

أما هذه المرة فإن زميل الرحلة السفير عمر جالو قطع صمته الذي أجبرته عليه الطائرة وقال لي: أنظر هذه الدهناء تحتنا، إنها كالدهناء العربية، وكنت أنظر إليها قبل ذلك وأقول: إن الدهناء العربية اختزنت ولا زالت تختزن ثروات معدنية غير الماء ومنها النفط الذي استخرج من بعض أطرافها ولا يزال يستخرج منه المزيد من أطراف أخرى.

كما أنها إذا جادها الغيث وازدهاها الربيع عاش عليها الأعراب من كافة القبائل، ولذلك قال الأصمعي المعروف: لا تحمل العرب أرض إذا أربعت إلا الدهناء والصمان. أما هذه الدهناء الإفريقية فما علمنا في جوفها من معادن، وربما كانت قد خبأتها لقوم آخرين اللهم إلا ما كان من أمر معدن (اليورانيوم) المشع فإنه موجود في مكان منها بعيد عن هذا المكان وربما لا يكون في (دهناء) وإنما في أخت لها من أرض صحراء.

وقد بلغت مدة الطيران الآن ساعتين ونصفا وبقيت حسب قول الطيار

نصف ساعة وهنا بدأت الطائرة تخفض من غلواء محركاتها مما يدل على أنها في سبيلها للهبوط، فاتضحت الأرض رمالاً حمراً غير مرتكمة، وعاد الطريق الإسفلتي الأسود يكحل عين الصحراء، ولم نرَ أي أثر للعمارة حتى الآن. ما عدا شيئاً في الصحراء كأنه آثار حول الحيطان المستديرة ربما كان من فعل العوامل الجوية، وربما كان من آثار بعض الرعاة أو البداة في الصحراء في فصل الربيع عندهم الذي هو فصل الخريف عندنا. وليس في الأرض أي أثر للخضرة حتى أشجار الصحراء قليلة وهامدة ما عدا بعض الأماكن المنخفضة حيث تتكاثف فيها الأشجار وتكون أحسن منظراً قليلاً.

ما عدا الخط الإسفلتي فقد كان يكحل العيون وكأنه المرود الذي يكحل عيون المتطلعين في وجه الصحراء، أو كأنه المبشر بقرب الوصول إلى نقطة من نقط الحياة وهو عمل عظيم في هذه الصحراء الكبرى من دون شك.

ثم رأينا وادياً متسعاً مكتظاً بأشجار الصحراء الشبيهة بالطلح.

في مطار أغاديس:

وصرنا فوق مدينة أغاديس بسرعة لأن الطائرة كانت منخفضة قبل ذلك، والأرض نفسها ليس فيها جبال أو تلال عالية تمنع الطيران المنخفض، وإنما تبدو جبال الصحراء بعد أغاديس من جهة الشمال.

ولم نسمع كلمة واحدة من الطيار الذي لا يفصل بيننا وبينه فاصل مما يتعلق بالرحلة، قرب الوصول للمدينة إلا ما علمنا منه من قبل من أن الرحلة ستستغرق ثلاث ساعات، كما أننا لم نسمع منه أي آثار للإتصال اللاسلكي بمطارها.

بدت معظم بيوت المدينة من الطين ذات الأحواش الخالية من الخضرة، ما عدا بعض المباني الإسمنتية القليلة التي فهمنا أن أكثرها حكومي، وهذه فيها أشجار خضرة مسقية، وكان أهم منظر وأوضحه فيها منارة المسجد الجامع وهي أعلى بناء في المدينة.

وهذا هو الجامع التاريخي القديم الموجود فيها.

وهبطت الطائرة في مطار ذي مدرج واحد ولكنه جيد غير ضيق، ومزفلت زفلتة جديدة مما يدل على العناية لأن الإزفلت في مطارات المناطق الصحراوية يحتاج إلى عناية وإلا تشقق بفعل العوامل الجوية التي من أهمها تناوب الجفاف والرطوبة في الجو بشدة، مع شدة حرارة الشمس في الصيف.

وهذا المطار تصله خطوط طيران داخلي بالعاصمة مرتين في الأسبوع في طيران تجاري.

ويبدو بناء المطار أصفر اللون كاللون العام على رمال الصحراء، وتحوم فوقه غربان كثيرة، وهو من الإسمنت المسلح وكتبوا أمامه لوحة كبيرة جميلة المعنى إلا أنها بثوب لا نراه كذلك وهو اللغة الفرنسية. وما أجدر هذه المدينة العلمية مدينة أغاديس التي كان لعلماء العربية والدين فيها دولة دالت ولكن لا يزال من بين أهلها قوم من العرب الذين يتكلمون العربية، وقوم من الطوارق الذين يتعلمونها. وقد تحدثت اللافتة عن ذلك.

وفي هذا المطار الصغير رأينا استعداداً جيداً يتمثل في وجود سيارات من ناقلات الوقود، وسيارات أخرى للإطفاء، وخزانات للوقود أيضاً جيدة المظهر.

ورأينا القوم قد تجمعوا بشكل منتظم على جانب المدرج لاستقبال ضيوفهم جزاهم الله خيراً. وكلهم يرتدي الملابس الوطنية الفضفاضة التي أهم ما يميزها العمائم الكبيرة المحنكة أي ذات الجزء الذي يكون منها تحت حنك اللابس، وأكثرهم قد وضعوا جزءاً من هذا الجزء ـ لأنه كبير ـ على أفواههم بمثابة اللثام. لأن هذه الأرض كانت في الأصل من مساكن الملثمين أهل الصحراء من الطوارق وهم من البربر الصحراويين المشهورين باتخاذ اللثام منذ القديم حتى قيل عنهم إن المرء يستطيع أن يبرز أي شيء من جسمه قبل أن يبرز فمه وما تحت لثامه.

وأذكر أنه كان لدينا طلاب منهم في الجامعة الإسلامية في المدينة لمنورة، وقد تركوا اللثام، إلا أن الواحد منهم إذا أراد أن يكلمني لا بد من أن يضع يده وفيها أي شيء يمنع من رؤية فمه، كأنهم يرون أنه لا ينبغي كشف الفم عند من له مقام عندهم يستحيون من ذلك.

ولقد ذكر الباحثون أسباباً عدة لهذا اللثام أظنها كلها ليست مقنعة، وإنما السبب الأهم إن لم يكن الوحيد لتلثمهم هو أنهم يعيشون في جو صحراوي جاف الهواء تتحرك فيه الرياح الجافة فتيبس منها الشفاه، وتذرو الغبار على الأفواه.

ولقد جربنا مثل ذلك في صحرائنا العربية، وإن كنا لا نستعمل اللثام بصفة مستمرة كما يستعملونه وإنما نفعل ذلك عند الحاجة.

وهذا اللثام شاهد على أنهم قوم صحراويون وأن منطقتهم هذه منطقة صحراوية إن احتاج الأمر إلى شاهد غير أن هناك ما يعضد هذه الشهادة أيضاً مثل وجود ذباب صحراوي ملح - من الإلحاح - على وجه واحد أو اثنين منهم، وشاهد صغير آخر وهو أن أحدهم بعين واحدة وهذا أمر قليل في إفريقية الإستوائية. وإنما يكثر حيث يكثر الذباب في الصحراء وما قرب منها ولا أدري السبب.

كان عند باب الطائرة نائب محافظ المدينة وبعض كبار الموظفين ومعهم مصورو التلفزة الذين صوروا الإستقبال في عدة أماكن، ثم سلمنا على صفين طويلين من الإخوة المستقبلين من كبار الموظفين وأئمة المساجد والمشتغلين بأمور الدين.

وبعد سلام قصير قربت السيارات فركبت مع نائب المحافظ وتبعنا عدد منها.

في مدينة أغاديس:

دخلنا المدينة من الشارع الرئيسي فيها ويكاد يكون الشارع المزفلت الوحيد وهو جزء من الطريق الصحراوي العظيم الذي امتد الآن إلى

(نيامي) ويأمل أهل مالي أن يوصلوه من جهتهم إلى النيجر حتى يتصلوا بالجزائر عن طريق هذا الخط الإسفلتي الجيد. وأن ينتظم ذلك مدينة تنبكتو التاريخية العلمية المشهورة في (مالي) التي هي معزولة الآن عن وسائل المواصلات الحديثة ما عدا الرحلات الجوية غير المنتظمة.

ورأينا المدينة نظيفة جداً بالنسبة لمثيلاتها في المنطقة وشوارعها واسعة، وإن لم تكن مزفلتة في أكثرها ولكن بعضها مفروش بطين مرصوص. وفي بعض البيوت أشجار من أشجار الظل عديدة، وقصدت السيارات بيت محافظ المدينة وهو من الإسمنت تحيط به حديقة كبيرة ذات أشجار ظل وارفة فيها عدد من الظباء التي ترعى العشب طليقة هنا لأنها صارت أليفة، فأسرعت ألتقط صورة لها قبل الدخول لغرفة الإستقبال، ولم أخشَ في هذا لومة لائم. وإنما خشيت لومة اللائم في أخذ صورة لكلب سلوقي من كلاب الصيد حسن المظهر مرح الأعطاف لعوب فتركت تصويره. كذلك لم أقم بتصوير طائفة من الدجاج الحبشي المستأنس الذي هو وحشيّ في الأصل. لغير الخوف من اللوم، ولكن لكونه لا يستحق التصوير.

وجلسنا في قاعة للجلوس واسعة فيها مقاعد مريحة حديثة ومكيف للهواء لا يعمل لأنه لا حاجة إليه الآن فالجو جميل جداً يميل إلى البرودة.

وفيها جهاز للتلفزة كبير قالوا: إنه يلتقط الإرسال من نيامي مع أن المسافة بينهما تبلغ ألف كيلو متر أو تزيد. ولكن هناك محطات لتقوية الإرسال كما يقولون ـ وعلى ذكر التلفزة أقول: إنهم كانوا يصورون الوصول إلى هذه القاعة كما فعلوا في المطار.

وفي المجلس ببغاء كبير كان يتكلم ولكن لا أدري بأي لغة فأبعده الشيخ البيهقي عن المكان. وقد دخل الغرفة الكبيرة معنا عدد من وجهاء البلد، وأهل الفضل والدين فألقيت فيهم بكلمة قصيرة ترجمها الشيخ السفير الذكوري إلى الفرنسية ورد عليها نائب الحافظ بكلمة ترحيبية مناسبة.

ثم ترجمها الشيخ عمر جالو إلى الهوساوية وقال: إن أكثر اللغات انتشاراً هنا (الهوساوية) وبعض القوم لا يفهمون الفرنسية.

وكنت أتوقع أن أرى فيها شيئين بكثرة أحدهما: النخل، والثاني: الإبل، فهذه منطقة صحراوية مناسبة للنخل والإبل. ولكنهم ذكروا أن النخل في خارج المدينة، قالوا: إننا سوف نخرج إلى مكان فيه نخل نريك إياه، وكذلك سوف نذهب إلى مكان الإبل. وذلك كله في برنامج قصير قبل صلاة الجمعة.

عربي من أغاديس:

بلدة أغاديس نفسها في البرية، ولكن المراد بالبرية هنا ما كان خارجها من الصحراء، كان قائد السيارة التي أركب فيها فتى عربياً صميماً لم تستطع شمس إفريقية أن تغير شيئاً من لونه أو لغته. واسمه (سيف الدين) هكذا ذكر اسمه بالإختصار، وعندما كررت عليه بيان اسمه الكامل قال: سيف الدين بن محمد العربي وأظن هذه الأخيرة ليست من اسمه وإنما جاء بها لتدل على أصله. وعدم ذكر الإسم كاملاً عادة متبعة من الصحراويين البداة مما كنا نعرفها من الأعراب في بلادنا. وكان سببها في الأصل الخوف من الانتقام والثأر من شخص فرد أو أفراد من قبيلة لها ثأر عند قبيلة أخرى. إلا أن الأفارقة الأصلاء لا يذكرون لك الإسم الكامل أو أن بعضهم هو الذي يفعل ذلك لعامل آخر هو الخوف من السحر، لأن السذج والعوام منهم يزعمون أن المرء إذا عرف اسمه الكامل فإن هذا يكون أسهل لوصول السحر إليه.

وعلى أية حال فإن الأخ العربي هذا وهو فتى في حدود الثانية والعشرين من عمره ليس على درجة جيدة من حدة الفهم، والتقدير للمعلومات التي يريدها ضيف عربي مثله عنه أو قبيلته، فلم يكن يتبسط بالكلام.

وربما كان مرجع ذلك إلى كونه مجرد سائق سيارة لضيف على

بلاده، والأعراف لا تجيز أن يكثر السائق من الكلام مع الضيوف وبخاصة أنه لم يجلس معي مجلساً منفرداً. وقد ذكر قبيلته العربية وهي معروفة مشهورة هنا بأنها (يدآس) ولفظها بكسر الياء المثناة. وتشديد الدال المفتوحة، ثم سين في آخر الإسم. وقال: جماعتنا ينزلون ويرحلون أي إنهم أعراب.

وهذه القبيلة هي فرع من قبيلة كبيرة في هذه الصحراء الإفريقية الكبرى يعيش أفرادها فيما يسمى بالساحل: ساحل الصحراء الجنوبي مما يلي منطقة المراعي الخصبة التي تقع شمال خط الإستواء.

وهم أبناء عم لقبيلة (البرابيش) التي رأيت طائفة من أهلها في مدينة (تنبكتو) التاريخية شرقي (مالي). ويقولون أيضاً إنهم أبناء عم لكنتا من العرب هنا أيضاً.

ولكن عروبة هذا الأخ وأمثاله تحيط بها المخاطر ويوشك أن تصبح هشيماً تذروه الرياح كما أصبحت بقايا الأعشاب في هذه المنطقة، التي كانت حافلة بالمراعي في القديم. فهو يتكلم الهوساوية بكثرة لأنها اللغة الأولى المنتشرة في هذه المدينة، تبعاً لأكثرية سكان مدينة (أغاديس) وإن كان الناس خارج المدينة يتألفون في الأكثر من العرب والطوارق.

وهو أيضاً متزوج من (طارقية): نسبة إلى الطوارق. وقد قال لي بعد ذلك في تبرير زواجه: إن العربية تقعد في البيت وأما الطارقية فإنها تعمل وتنفع بعملها.

ويذكر الناس هنا ما يعرفونه عن الطارقيات بأنهن أكثر عملاً من العربيات، وإن لم يقل لي هذا الأخ العربي شيئاً غير ذلك. ولم يقل ما قاله بعضهم من أن العربيات أكثر محافظة على العادات العربية من الطارقيات.

في بادية أغاديس.

خرجنا من المدينة بصحبة عدد من الإخوة الموظفين من أهل المدينة

ومن المرافقين فكان أول انطباع عنها أن أعاد إلى ذاكرتي منظر أعالي بلادنا حيث تكون أشجار الطلح والدوم نامية في الوديان وباقي الأرض ليس فيها شيء من ذلك، ما عدا شجر العشر الذي رأيته نامياً هنا بكثرة ملفتة للنظر وهو ليس من الأشجار المحبوبة في بلادنا لأن العامة تزعم أنه من مساكن الجن، ولا تأكله الدواب، وإنما ينتفع بالفحم من عيدانه لصناعة البارود.

وذكر لي القوم منهم أن الأعراب هنا يعتقدون أيضاً أنه مساكن الجن. وأما الماشية هنا فإنها ماعز من اللون المنقط الأرقط وهو الملون بأبيض وأسود في تعاقب متفرق على الجلد وليس كمثل السواد والبياض في غنم السودان الغربي الذي يكون كل لون منهما منفصلاً عن الآخر بحيث تكون الشاة أو الخروف مقسومة إلى نصفين أحدهما لونه أبيض والثاني أسود من دون اختلاط بينهما حتى كأنما رسم اللونان بريشة رسام ماهر.

وهذا اللون إذا كان في الماعز فإن العامة عندنا يسمونها بالربشاء: والتيس أربش.

وهذه الماعز شبيهة بالموجود عندنا من حيث الحجم والشكل، فإما أن يكون ذلك من فعل التشابه في البيئة أو أن تكون أصولها من الجزيرة مثلما هو معروف مؤكد من كون البعير الموجود الآن في الصحراء الإفريقية عربي الأصل جلب من الجزيرة في أوقات متأخرة ربما لا تتعدى ألفي سنة.

وهذا ليس غريباً لأن الحصان الأميركي ثبت أن أصله البعيد من الجزيرة العربية وأنه أدخل إلى أمريكا مع الغزاة الإسبانيين وتناسل وكثر هناك قبل أن تنمو العمارة فيها.

سألت السائق عن المكان الذي نقصده فقال إنه (الخسي) بخاه منقوطة ظاهرة في لفظه، فقلت له: من أية لغة هذا الإسم؟ فقال: لا أدري ولكن هذا اسمه بالعربية. وقد أعجزني إفهامه حتى فطن لي أحد الإخوة فقال: إن الحاء والخاء تتعاقبان في لغة هؤلاء العرب، فجائز أن يكون اسمه (الحسي) عند غيره. وقد سألت عنه بعد ذلك فقالوا: نعم إن اسمه

(الحسي) بالحاء المهملة، فقلت: إن هذه كلمة عربية فصيحة ولا بد أن هذا المكان فيه آبار قريبة الماء وأن يكون في مجرى وادٍ أو على قربه، فهكذا نعرف الحسي في الجزيرة لأن جمعه أحساء، وعندنا عدة أمكنة مسماة بهذا الإسم ومن أكثرها ظهوراً ذلك الذي في الطريق الإسفلتي ما بين الرياض والقصيم واسمه (الحسي) على لفظ هذا الإفريقي بالضبط، فقالوا: إن الأمر فيه كذلك، وسوف نراه بعد قليل.

لم تكن الجولة طويلة ولا موغلة في الصحراء لأن الوقت والبرنامج لم يكونا يسمحان بذلك، ولذلك كان المكان المقصود لا يبعد أكثر من عشرة كيلومترات ومع ذلك فإنها كانت مفيدة لي.

وأقبلنا على وادٍ فيه دوم ملتف، وكان السائق يسير الهوينا بسيارته حسب رغبتي، وخلفنا القوم فسألته عن الأشجار التي أقبلنا إليها أهي النخيل التي سنراها؟ فقال: لا، ثم قربنا من جهة فيها نخيلات معدودة وسط أشجار الدوم فقال وهو يشير إليها: ها هي النحيل ـ بحاء مهملة غير منقوطة، فقلت له: كيف قلت؟ فقال: ها هي النحل بالحاء المهملة أيضاً. فعرفت ما ذكره لي صاحبي من أن الحاء والخاء تتعاقبان على ألسنة هؤلاء العرب.

ومررنا ببيوت من بيوت الطوارق بنيت من القصب على هيئة الخيمة ومحاطة بسياج من الأعواد المرصوفة. قالوا: إنهم يعملونها هكذا من سعف الدوم وعسبها ـ جمع عسيب ـ وهو أسهل عليهم من البناء بالطين لوفرة الدوم في وديان هذه المنطقة.

السانية على البئر:

وقف الموكب في بطن الوادي، وأقبلنا على سانية وهي الدابة التي يستخرج عليها الماء من البئر بالغرب وهي الدلو الكبيرة التي تسحبها.

وكان لرؤيتها وقع كبير في نفسي لأنني لم أشاهد مثلها منذ ثلث قرن، فقد كانت السواني أول ما عقلت هي الوسيلة الوحيدة لإخراج الماء

من الآبار، ومن ثم سقي النخل والزرع. وقبل ثلث قرن من الآن تقريباً أخذت الآلات الرافعة تحل محلها حتى ذهبت السواني إلى غير رجعة.

وفي السنوات الأخيرة كان أصعب شيء على الجيل الجديد من أولادنا أن يفهموا وصفنا للسواني لأنهم لا يعرفونها ولا يتصورونها.

والآن قد رأيتها لا تزال باقية في هذه الصحراء الأفريقية الكبرى التي لم تعترف بتغير الزمان، ولا بتقلب الأحوال وبقيت فيها هذه السانية شاهد عدل على ذلك. إلا أن الساقية الصحراوية الأفريقية هذه هي مما كنا نعتبرها في بلادنا في عهد السواني ضعيفة لا يقتصر عليها إلا الضعفاء والفقراء لأنها تسني على بقرة واحدة يساعدها سائقها وهو رجل واحد شديد.

ولا تختلف في مظهرها ووسائلها عما كنا نستعمله في القديم حتى الغرب الذي هو الدلو هو مثل الذي عندنا تماماً.

والبئر ليست عميقة، ولا بعيدة الغور أقدر أن عمقها في حدود ستة أمتار، وماء البئر عذب لذيذ شربت منه واستطبته لأنه نقي، إلا أن الضعف الأكثر يتجلى في الفلاحة نفسها فأحواض الزرع صغيرة إلى درجة أن بعضها لا تزيد مساحته على متر في متر والزراعة فيها ضعيفة وتخطيطها غير مستقيم الجوانب.

أما المزروعات فهي على صغرها متنوعة فيها القرع المعروف عندنا. وقليل من الخس غير الجيد، وعدة شجيرات من الطماطم.

ومن الغريب أن تجد بعض أشجار الدوم في المزرعة وهي نامية قبلها فتسأل نفسك لماذا لم يقطعوها وينظفوا الأرض منها؟ والأغرب من ذلك أن في المزرعة نخلة واحدة وحيدة ولكنها عالية غير أنهم قد قطعوا عسبها ـ جمع عسيب ـ ولم يبقوا إلا قلبها وخوافيها وهي ما حول قلب النخلة من العسب. وسألتهم عما إذا كان فيها طلع لأن هذا هو وقت ابتداء الطلع عندنا، فأجابوا: ليس فيها شيء لأن الأمطار قليلة في السنوات الماضية.

وفهمت بعد ذلك أن هذه الأشجار من الدوم وفيها النخلة كانت تعيش من دون سقي إبان كثرة الأمطار.

قرية المتأدبين:

بقيت فترة في هذه المزرعة الصغيرة والشمس ساطعة، وهي كذلك منذ أن طلعت علينا في مطار نيامي حتى الآن، ولكنها ليست حارة لأن الفصل شتاء. ونسيت نفسي والوقت القليل المحدد لإقامتنا في (أغاديس) حتى أخذ الإخوة المرافقون ينبهونني ويعيدون ذلك إلى قصر الوقت فغادرنا هذا الوادي الذي لم أرَ فيه زراعة قريبة من هذه السانية المقتصرة على بقرة واحدة، وعدنا من طريق آخر غير بعيد من الأول لأنه لا أسفلت هنا، وإنما هي طرق ترابية، فرأيت على البعد من الوادي نفسه قرية سألتهم عن اسمها فبادر السائق العربي سيف الدين وقال اسمها (الدب)، هكذا لفظ الاسم ولم أفهم أول الأمر لأن المنطقة فيها لغات عدة أيسرها وأعمها الهوساوية تليها الطارقية فالعربية فمن أي اللغات هذا الاسم؟.

سألت أخانا العربي والقوم من أهل البلاد ومنهم الأخ الحاج (يوسف محمد) أمين بلدية أغاديس وهو يعرف العربية جيداً مع الطارقية والهوساوية لأنه من الطوارق المختلطين فقال: من العربية. فقلت: ما معناه، فقالوا: معناه أن أهل هذه القرية من المتأدبين فعرفت أصل الإسم وأنه (الأدب).

وهذا تفاؤل حسن بالتسمية. مع أنهم ذكروا أن أغلب أهل هذه القرية هم من الحوس الذين يسميهم الناس بالهوسا. ولكن لغتهم ـ كما هو معروف ـ تحتوي في حوالي ٣٠٪ منها على كلمات عربية.

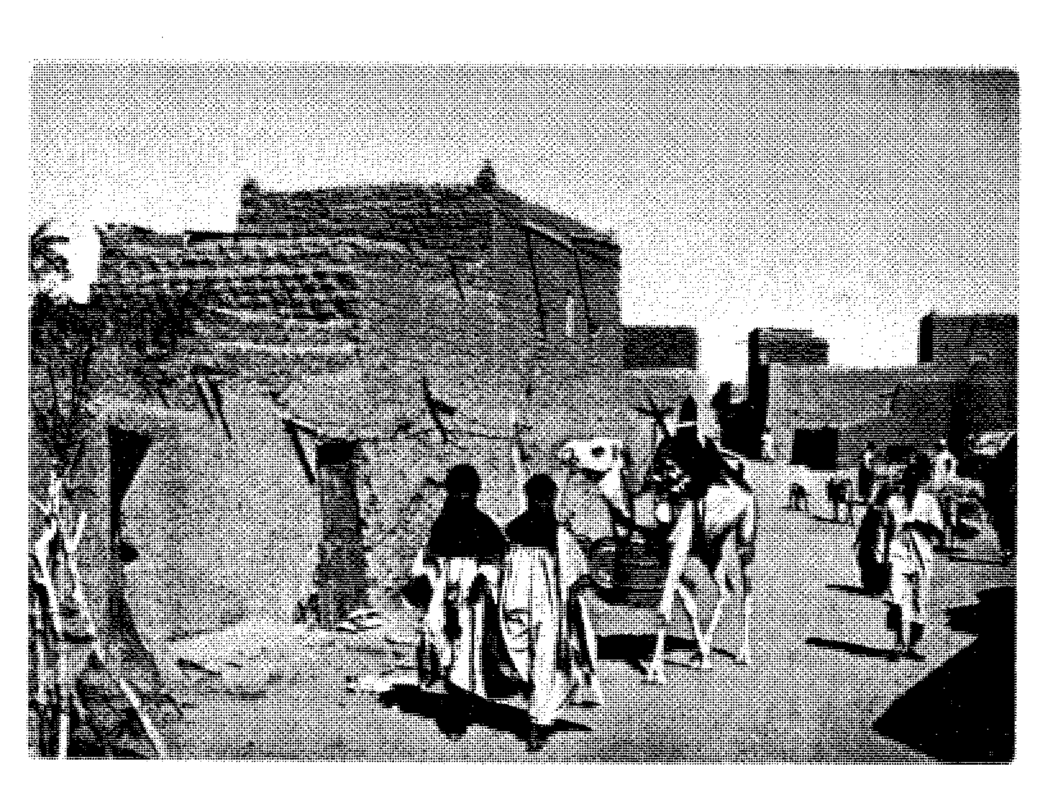
ومنازل هذه القرية المتأدبة من التزام الأدب في السلوك أو المعاملة مثلاً ولا نقول: أدباء لئلا يشتبه ذلك بأنهم من المتعاطين لفن الأدب، وكل منازلها مقامة مما تخرجه شجرة الدوم من جذوع وجريد وسعف.

العودة إلى أغاديس:

وكانت العودة إلى أغاديس جولة في شوارعها الواسعة التي هي كلها

طينية غير مسفلتة، ولكنها ممهدة بشكل جيد. وأهم ما يعجب له المرء فيها وجود أشجار كثيرة من العُشر وهو أخضر ناعم مع أنه طفيلي قد نبت فيها عفواً، ولم يغرس غرساً.

وقد ذكرتني الجولة فيها بما رأيته في شوارع مدينة تنبكتو التي تشترك معها في كثير من الخصائص من أهمها غير الموقع الصحراوي أو الواقع على حافة الصحراء هو وجود العرب والطوارق مختلطين فيها بملابسهم الفضفاضة وأحياناً تراهم متلثمين من غير أن ترى ما يدعو للثام، ومع ذلك فإن الطائفتين في كلتا المدينتين ليست لهما الأكثرية وإنما هي لطائفة من الإخوة المسلمين السودانيين وإن كانت في تنبكتو للسنغي، وفي أغاديس للحوس أو الهوسا.



في مدينة أغاديس

ومنها أن أكثر البيوت مبنية بالطين، وإن كانت البيوت الإسمنتية موجودة على قلة، مع أن هناك فروقاً ظاهرة بين المدينتين، فتنبكتو كانت مدينة مزدهرة، وقد أدبرت الآن، ولذلك تجد الجديد من بيوتها رديئاً. وتجد القديم فيها هو الجيد. ومنها أنك تستنشق غبار التاريخ العربي الإسلامي في البلدتين كلتيهما، وتستنشق معها غبار الصحراء أيضاً لأن شوارع البلدتين غير مزفلتة.

ومررنا ببناء يرفرف عليه علم الجزائر أخبرنا الإخوة أنه مبنى القنصلية الجزائرية وأنها القنصلية الوحيدة الموجودة الآن في المدينة، وهذا أمر طبيعي فالحدود الجزائرية هي أقرب حدود الدول المجاورة من بلدة أغاديس، وهذا الخط الإسفلتي الذي يقسم المدينة بعلامة مميزة وهي لونه الأسود المريح، يمتد إلى حدود الجزائر في الصحراء ما عدا قطعة صغيرة منه في أراضي النيجر.

وقابلنا عدداً من تلميذات المدارس قد خرجن لتوهن من المدرسة وكلهن يرتدين الملابس المدرسية التي لا تمت إلى لباس أمهاتهن التقليدية بسبب. وهن كالأبناء في مظهر حسن من حيث التغذية والنظافة.

وأغلب سكان المدينة هم من الهوسا الذين يتميزون بسواد اللون ما عدا العرب والطوارق، ولذلك رأيت طائفة من الأطفال بيضاً أو خضراً فسألت عنهم: أهم من العرب؟ فكان المرافقون يجيبون: إنهم من الطوارق.

ثم مررنا بسوق المدينة بحوانيته الطينية البسيطة، ولكن تظهر عليها العناية الخارجية.

ومن العجب أنني رأيت طائفة من السواح الغربيين إما من الأوروبيين وهو الغالب أو من الأمريكيين وهم يتجولون بسرور وباطمئنان في سوق هذه البلدة بلونهم المميز ببياضه وسط السكان السود، وقد جاؤوا سائحين متفرجين يقطعون الصحراء الكبرى يتمتعون بالتفرج برؤيتها، ومشاهدة أهلها ولا يمنعهم من ذلك طول الطريق الصحراوي الذي يسيرون عليه، ولا

صعوبة السير عليه في القطعة منه غير المزفلتة. وسألت عما إذا كان ياتي إليهم أحد من العَرب السياح يفعلون مثل هذا الفعل؟ فأجابوا بالنفي، مع أن العرب إذا زاروا هذه البلاد فإنهم في الحقيقة، إنما يـزورون بلادهم لأنها بلاد إخـوانهم من عرب ومسلمين، والبيئـة الصحراويـة تشبه بيئتهم الصحراوية الأصيلة.

من تاريخ أغاديس

تاريخ أغاديس القديم غير مكتوب، لأن حياة التنقل والإرتحال في الصحراء لا تحافظ على المخطوطات، كما أن الحياة نفسها لا تساعد على التفكير في كتابة تاريخ مطول، وإنما توجد حكايات شفهية، ومأثورات شعبية تتحدث عن تاريخ أغاديس فتقول مثلاً:

يبدأ تاريخ «أغاديس» عندما تعب طوارق العير من خلافاتهم المستشرية بين قبائلهم، فأخذوا يبحثون عن حَكَمٍ يفضّ نزاعاتهم. ثم طلبوا إلى سيدهم البعيد، في اسطنبول، أن يرسل لهم زعيماً.

نقطة الإلتقاء:

كان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر. وكان أن عيّن السلطان العثماني ابنه يونس ليكون هذا الحَكَم. بعد سفر طويل مع حشد من الأقارب والأصحاب وصل يونس إلى العير. وفجأة توقف الموكب: كان هناك رمح طويل، مغروز في الأرض، يقطع الطريق. ورأى يونس في هذا الرمح «إشارة»، فبنى في المكان ذاته جامع أغاديس الكبير. ونما حول هذا الجامع مركز المدينة.

وإذا كان يونس هو الذي أنشأ المدينة، فإن السلطان الثالث عليساوا هو الذي كان وراء ازدهارها حوالي عام ١٤٣٠. والواقع أن تلك الفترة هي التي شهدت ازدهار النشاط التجاري عبر الصحراء. فكانت القوافل تصل

بين العير وبين مملكة سنغي في غاو، لكنها كانت تصل أيضاً حتى مصر في الشمال، وحتى كتسينا في الجنوب.

وتحولت أغاديس بسرعة كبيرة الى عاصمة العير، وصارت مركزاً عظيماً تلتقي فيه القوافل، فحلّت بذلك محل العاصمة القديمة «أسودة». وخلال قرون عديدة ظلت أغاديس مستمرة في توسيع علاقاتها التجارية، لا سيما مع إفريقية الشمالية (الجزائر، تونس، ليبيا). وعندما وصل المستكشف «بارت» إلى العير عام ١٨٥٠، تبيّن له أن تجارة الحبوب ما تزال مزدهرة بين أغاديس ومدن المغرب، مثل غدامس ورحاط وتواط. غير أن هذه الصحة الجيدة التي كانت تتمتع بها المدينة لم تكن سوى مظهر وحسب، إذ أن المعارك الداخلية ما لبثت أن استؤنفت بين الطوارق، منذ القرن الثامن عشر، فلم تصل أغاديس إلى القرن العشرين إلا مستنزفة منهوكة القوى.

«كاوسن» الذي لا يُقهر:

تبدو على أغاديس في أيامنا هذه إمارات الهدوء والمسالمة. لكن سكانها المسنين ما زالوا يتذكرون الفترة الأخيرة التي اضطرمت خلالها نار الحروب التي أشعلها آخر أسياد الصحراء. فقد شهدت سنوات ١٩١٦ - ١٩١٩ معارك حامية بينهم. والواقع أن الطوارق قد اغتنموا فرصة الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨، وحاولوا أن يتحرروا من الوصاية الفرنسية. وهكذا أعلن السنوسي الأكبر أحمد، عام ١٩١٤، من قفره، «الجهاد المقدّس» ضد الفرنسيين، ما لبثت بعده أن اشتعلت الصحراء بأسرها. ففي صحراء العير، قام أحد الأعيان «ايكاز كارزان» في «دمرغو» (إقليم طانوت) الذي كان قد هاجر إلى كانم مع «الكيل غرس» - وهم لم يخضعوا للإستعمار الفرنسي - فدخل العير بجيش كامل العتاد (خمسمئة بندقية ومدفع). وهذا المتمرد هو الزعيم الأسطوري كاوسن آغ محمد. وقد وصلت طلائع جيشه إلى أغاديس في كانون الأول ١٩١٦، وهاجمت الحامية الفرنسية. ثم حاصر كاوسن مدينة أغاديس تسعين يوماً (حتى ٣ مارس ١٩١٧) واضطر

إلى الإنسحـاب، إذ أن القـوات الفـرنسيـة المسـانـدة هـرعت لنجـدة المحاصرين.

وبعد أن قاتلت قوات كاوسن في العير، وفي دمرغو، تقهقرت نحو كعـوار ثم إلى تيبستي. لكنها وقعت هنـاك في فخ نصبـه حاكم مـرزوق التركي، وقتل أفرادها جميعاً في ٥ ينايـر ١٩١٩. وباستثنـاء بعض شهود العيان الذين عاشوا تلك الأزمنة البطولية، لم تحتفظ أغاديس بأية آثار تدل عليها.

وتبدو (أغاديس)، هذه المدينة الصحراوية الجميلة، بمظهرها الرائع أيام الأعياد التي تدور فيها. ومعظم هذه الأعياد دينية. إذ أن نموَّ الإسلام وتكاثر المساجد في إقليم العير قد جعلا من أغاديس مدينة معظمة.

إن الصور الفوتوغرافية التي يأخـذها المسـافرون، والحكـايات التي يروونها، جعلت لجامع أغاديس الكبير حديثاً شائعاً. والواقع أن هنـدسته المعمارية أنموذج من هذا الفن الذي ازدهر في كل أنحاء السودان القديمة، ولا سيما على امتداد ضفاف نهر النيجر. ويصل ارتفاع مئذنته التي يشبه شكلها قالب السكّر إلى ٢٧ متراً، وتحفّ بها الأوتاد من كل صوب، فتبدو شبيهة إلى حد كبير بالمباني المشيّدة في جني وتنبكتو وغاو.

ورغم أن الأسطورة تقول إن هذا الجامع قد بني في القرن الخامس عشر (على عهد السلطان الأول يونس)، فإن تاريخ بنائه الفعلي يعود إلى القرن السادس عشر، كما سيأتي، وهناك جامع قـديم جداً يقـع في حي «ايبركوراين»، كان قد بُني على يـد «رجال بيض» «بـورو كواري» بلغـة السنغي القـديمـة، ممـا أدى مـع شيء من التحـويـر الى الكلمـة الحـاليـة «ايبركاووري». وكل هذا يدل على أن سكان العير الأوائل كانوا من العرب أو من البربر المسلمين، الذين جاؤوا إلى تلك المنطقة واستوطنوا فيها، في نفس الوقت الذي جاء فيه طوارق كل وي.

أعياد الرجال الزرق:

لرؤية أغاديس في أفضل أحوالها، ينبغي أن يزورها المرء في أوقات الأعياد ومواسم الحج (التي لا يلبث بعضها أن ينتشر نحو جميع المساجد القديمة في إقليم العير).

ففي رأس السنة الهجرية الجديدة مثلاً، التي تدوم الأعياد بمناسبتها أسبوعاً كاملاً، تمتلىء شوارع المدينة بالأغاني والأهازيج. فلا يعلم المرء إذا كانت النساء هن المتجملات مثلاً أم الرجال. إذ أن الجنسين يتقلدان أبهى الحلى ويرتديان أجمل الحلل. فتلبس النساء أثواباً جميلة موشحة بتخاريم بيضاء ومزينة بشرائط حمراء، وتتقلد أجمل عقود الذهب والفضة والعقيق.

ثم إنهن يأتين زرافات ووحداناً من سائر أحياء المدينة على وقع



خيمة من خيام الطوارق

الطبول، ويتجهن نحو موكب من العازفين والراقصين المُلثَّمين، فالنساء هنا سافرات، بينما الرجال هم الذين يلبسون اللثام، وقد ينامون وهم ملثمون أحياناً. ثم يأخذ الراقصون بالدوران والقفز، ثم بالإستـدارة على أنفسهم استدارات موقعة وموزونة، وهم يحملون رمح الطوارق الطويل الذي يعلوه بيرق صغير.

هؤلاء هم «رجال الصحراء الزرق» الذائعو الصيت، إنهم لقبوا بهذا اللقب للثامهم المصنوع من قماش مصبوغ بالنيلة، يذكرنا لونه بلون ورق «الكربون». وهـو كورق الكربون أيضـاً، يترك على الجلد بعض الأثـر، فيُضفي عليه مسحة زرقاء.

والراقصون أيضاً ينتعلون أحذية عالية، ويلفون رؤوسهم بشاشٍ تزينه أحجبة من النحاس والفضة. ثم إنهم يشرعون سيوفهم (التاكوبـا) فيبدون



من الاحتفالات في أغاديس

بزيّ قتالي تقليدي. وقد يُغالي بعضهم، فيدفع هذا التأنق كله إلى حده الأقصى، إذ يخفي ذلك القسم البسيط الظاهر من الوجه، وراء نظارتين عريضتين.

هكذا تقضي عاصمة العير سحابة نهارها على وقع الطبول، ولا تني الجموع تتدفق ـ مع أفواج من الصبية الذين يطالبون «بالحلوان» (كما هي العادة) ـ وتزدحم في الأزقة، بل حتى على أبواب السلطات حيث تجري حلبة صراع تقليدية، وتكون بمثابة خاتمة تظاهرة العيد.

وقد لخصنا هذه الفقرة عن أغاديس من ورقة أعطانا إياها أحد أهلها الكرام.

غداء أغاديس:

وعدنا إلى منزل المحافظ فوجدناهم قد أعدوا الغداء وكانت جلسة طيبة مع هؤلاء الإخوة أكثرت فيها من الأسئلة عن الطوارق وعما إذا كانوا يغضبون إذا دعوا بالطوارق، لأنني عرفت أنهم لا يسمون أنفسهم بهذا الإسم، ولا يعرفونه إلا عن طريق استعمال الناس له تماماً مثلما أن التكارنة، أو التكرور لا يعرفون هذا إسماً لهم، ولا يسمون به أحداً منهم، وإنما هو اسم أطلقه الناس عليهم من خارج بلادهم. فقال الأخ الحاج (يوسف محمد) وهو من الطوارق إننا لا نغضب من ذلك.

لقد كان بين المسؤولين الحاضرين قوم من الهوسا والطوارق فضلاً عن الجرما الذي كان منهم بعض الموظفين وإن لم يكونوا من سكان المنطقة ولكن لم يكن بين المسؤولين أحد من العرب. ربما كان ذلك لقلة عددهم نسبياً، وربما كان لكونهم أعراباً غير متعلمين أو هذه هي حال أكثرهم.

كان من أهم ما في المائدة (الكسكسو) الذي اشتهر به أهل المغرب عندنا فهو هنا وفي جميع أنحاء السودان الغربي موجود ويستعمل بكثرة، وبهذه المناسبة كنت قد سمعت قولة منسوبة لرئيس تونس الحبيب بورقيبة



طوارق ملتمون على ظهور إبلهم

وهو أنه سئل عن حدود المغرب العربي؟ فأجاب: حيث يؤكل الكسكس، ويلبس البرنس. . .

وعلى كلامه إن صح نقله عنه فإن هذه البلاد تعتبر من بلاد المغرب من ناحية المأكل. وهذا ليس بغريب لأنها تكاد تعتبر من عدة نواحٍ من المغرب. وأولها اشتراكها مع المغرب في الجهة التي تغرب منها الشمس بالنسبة إلى أهل المشرق العربي، وثانيها: الإشتراك في التمذهب بمذهب الإمام مالك في الفروع. وثالثها: الإشتراك في استعمال الخط المتطور من الكوفي القديم وإن كان الخط المستعمل في السودان له تسمية خاصة به، وهي (الخط السوداني) فإن ذلك لا يخرجه عن دائرة الخط المغربي الذي هو أقرب أنواع الخط الحية المستعملة الآن على نطاق الشعب بالخط الكوفي القديم.

ومن الأشياء الموجودة على المائدة خروف مشوي من دون أن تكسر قوائمه.

أقدم جامع في البلاد:

انتقلنا في موكب فيه نائب المحافظ وهو أكبر الموجودين في المدينة مقاماً كما أخبرونا بذلك، وطائفة من الإخوة الكرام من أعيانها وموظفيها منهم رئيس البلدية وأمينها. وذلك لأداء صلاة الجمعة في جامع أغاديس الكبير. وكان إمام المسجد الجامع في استقبالنا مع أعيان القوم، لذلك كان لا خوف من التأخير مع أننا لم نتأخر إذْ وصلنا إلى الجامع في الواحدة والثلث.

كان في استقبال الموكب إلى جانب الرسميين مصورو التلفزة، الذين صوروا ذلك وطائفة كبيرة من الإخوة وقوم كثر من اهل آغاديس الذين حضروا لأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير الذي هو في الواقع الجامع الوحيد في المدينة أي المسجد الذي تؤدي فيه صلاة الجمعة، وأما المساجد الأخرى التي لا تقام فيها الجمعة فإنها متعددة.

واخترقنا جمع الجالسين لأداء الصلاة بصعوبة بسبب كثرتهم وضيق المكان بهم. دخلنا فناءاً مكشوفاً تابعاً للسجد غير واسع أفضى إلى فناء مظلل بحصر وقد امتلأ بالناس كما امتلأ الأول. ثم دخلنا منه إلى قسم من الجامع مسقوف، وكنا نظن أنه آخر المسجد فإذا به يفضي أيضاً إلى قسم آخر مسقوف، حتى جلسنا في صدر المسجد خلف الإمام، وكان السكون المطبق المطلق هو المخيم على المسجد رغم كون الخطيب لم يدخل ولم يؤذن الآذان الأخير بعد. فلم يكن هناك من يرفع صورته بقراءة القرآن أو بشيء من الدعاء أو التسبيح.

وبعد حوالي عشر دقائق أذن مؤذن دقيق الصوت من خارج المسجد ربما من المنارة أي لم يكن يؤذن من داخل المسجد كما اعتاد الناس ذلك في كثير من الأمصار العربية في الوقت الحاضر. وحالما فرغ المؤذن من الآذان تبعه مؤذن آخر بصوت مختلف عن صوته ولكن الآذان نفسه لم



جامع أغاديس

يتغير، ثم أذن مؤذن ثالث أيضاً بعد أن انتهى الثاني بدون إضافة أي شيء جديد إلى الآذان الأول أو الثاني ولا أدري الحكمة في ذلك، وإن كنت أعرف أن هذه عادة موجودة في بعض أنحاء المغرب الغربي.

ومع سعة هذا الجامع فإن المصلين لا يرى بعضهم بعضاً داخل المسجد لأن أعمدته مقامة على هيئة جدر صلبة سميكة منقادة من الطين فيكون المرور بينها أشبه بالمرور مع ممرات غرف منفصلة وليس بين أسطوانات في مسجد واحد.

وشيء مهم جداً وهو أن هذا المسجد على قدمه قد ارتفعت أرضه من كثرة ما هدم وبني حتى صار الإمام لا يستطيع الوقوف في المحراب لأن سقف المحراب لا يرتفع إلى أكثر من صدر الرجل، فأرضه قد ارتفعت على مدى التاريخ ولكن سقفه لم يرتفع. وكذلك الممرات بين العمد هي

منخفضة بحيث أنه يجب على المار منها أن يخفض رأسه وأن يستمر في ملاحظة ذلك وإلا ضربه السقف إلا إذا كان يسير في صف واحد فإنه لا خوف عليه لأن الصف مستمر من الجنوب إلى الشمال دون عمد.

ولكن المهم الذي نبهونا إليه هو الإنتباه عند الدخول من باب القسم المسقوف من المسجد فسقف الباب منخفض إلى درجة أنه لا يكفي لدخول القصير من الناس دون أن يخفض رأسه فما بالك بالطويل.

تاريخ المسجد التاريخي:

قال لي الرئيس حسين كونتشي: إن جامع أغاديس هو أقدم جامع موجود في النيجر في الوقت الحاضر. وبطبيعة الحال فهو ليس أول مسجد فيها لأن أهالي البلاد هم من المسلمين العريقين في الإسلام ولكنه أقدم جامع موجود معروف.

فقد بني في عام ١٥١٥ للميلاد أي منذ حوالي أربعمائة وثمانين سنة بناه الأسكيا محمد أحد ملوك السنغي من أهل السودان الغربي الذين كانت عاصمتهم مدينة (قاو) كما تعرف في الوقت الحاضر. وكانت قديماً تعرف باسم (قاوقاو) بالتكرير وكتبها المؤرخون العرب كاو كاو أو (كوكو) وقالوا في تعريف ملك السودان: إن مملكته تقع بين (كوكو) و(صوصو) وظن بعض الناس أن هذا اللفظ فيه شيء من إرادة النكتة، ولكنه هو الواقع، وقد أنشدني الشيخ عمر جالو شعراً عربياً في (كوكو) هذه أو (قاو قاو) كما كان ينطق باسمها في القديم وخفف في الحديث إلى (قاو) الذي لا يزال معروفاً لها وهو بدون تكرير.

أما (صوصو) فإنها بلاد واقعة إلى الشمال الشرقي من باماكو عاصمة مالي وهي بالفعل في بلاد السودان الغربي ومعروفة الآن بهذا الإسم إلا أنها أصبحت بلدة صغيرة الآن. وقد بنى الأسكيا محمد وهو من ملوك السنغي الصالحين ثلاثة مساجد مهمة بقيت شاهداً على تدينه وإخلاصه وهي (جامع تنبكتو) وهذا الجامع في (أغاديس) وجامع ثالث في (قاو) هذه.

وهذا المسجد مبني من الطين ولذلك ليس معنى كونه تاريخياً أنه باقٍ على البناء الأول الذي بناه السلطان الأسكيا محمد. وإنما كان يخرب في بعض الأوقات بل في فترات متعاقبة لأن الطين لا يصبر على البقاء طويلا ولكنهم كانوا في كل مرة يعيدونه على الهيئة التي كان عليها.

حتى منارته الشهيرة التي هي أعلى بناء في البلدة وأول ما يشاهده القادم إلى أغاديس سواء أقدم بطريق الجو أم بطريق البر، فإنها من الطين الأحمر القوي إلا أنها إذا احتاجت إلى إصلاح أو ترميم أعادوها كما كانت لذلك بقيت على طراز البناء السوداني القديم الموجود حالياً أظهر ما يكون في بلاد (مالي) التي ورثت ملك السودان الغربي العريق.

محافظون جداً:

لقد حافظوا على طراز هذا المسجد المتميز كما هو منذ أول عهد تأسيسه. ولكن ملاحظة صغيرة في مدى المحافظة من هؤلاء الإخوة على ما يعتبرونه مظهراً من مظهر مجدهم الإسلامي القديم أن الخطيب خطب خطبتين قصيرتين بالعربية التي لا يفهمها أكثر المصلين ولم تكن هناك موعظة قبل الصلاة أو بعدها بلغة القوم كما يفعل إخواننا من الأعاجم حينما يتكلم الإمام أو غيره بإلقاء موعظة بلغة القوم التي يفهمونها ويؤمل أن ينتفعوا بها مع المحافظة على أن تكون الخطبة بالعربية.

والشيء الملفت للنظر ليس هذا وإنما في أن الخطيب دعا في خطبته للسلطان أظنه قال إبراهيم. ثم ذكر أسماء آبائه وأجداده الذين كانوا قد تولوا السلطنة قبله إلى أن عدد حوالي ثمانية فكان يقول ابن السلطان المرحوم فلان بن السلطان فلان، وكنت أظن أنه وجد هذا في الخطبة التي كانت مكتوبة، وكان يقرأها من كتاب فتابع الكاتب على ذلك غير أن الإخوة أخبروني أن الأمر ليس كذلك وإنما يعني الحقيقة الكاملة، فالسلطان المقصود بالدعاء أو المنوه عنه وأجداده السلاطين هو سلطان مدينة (أغاديس) نفسها وهو حي يرزق وأجداده كانوا سلاطين هذه المدينة، ولقد ذهب (سلطان) السلطان أو سلطته، ولكن لم يذهب أسمه فأبقوه وصاروا

يدعون له محافظة على مظهر إسلامي عندهم عريق. والغريب أن الخطيب لم يدع لرئيس الجمهورية الجنرال حسين كونتشي. كما يذكر أن الخطيب هو من الهوسا، أما الأشياء الأخرى الملفتة للنظر في أمر الخطبة فهو أن الإمام وقف يخطب فوق صندوق مرتفع أكثر من شبر لأنه لا يوجد منبر قرب المحراب، وربما كان موجوداً فطمر على مر الزمان بفعل تجديد بناء المسجد أكثر من مرة كما تقدم.

وكان الخطيب يخطب خطبته القصيرة وأنا أرى أمامي بجانب المحراب إناءاً فخارياً مصنوعاً في بلدتهم قد وضعوا فيه جمراً وشيئاً من الطيب يعبق به المكان، وألمس بيدي جلود الضأن التي تغطي الصف الأول وبعض الصفوف الأمامية التي رأيتها وهي مفروشة فوق بسط أقل جودة، وذلك لأن الجلود وثيرة أكثر من هذه البسط. وأما سقف المسجد فإنه من الخشب فوقها الحصر تحت الطين وهو مرتفع السقف.

ولم أرَ في المحراب كوة أو نافذة كما كان أهل السودان الغربي يفعلونه في مساجد الجمعة، وربما كان ذلك لقدم طراز المسجد.

وقد أخذ القوم زينتهم في المسجد وزينتهم تتمثل غالباً، بل ربما كان ذلك دائماً في ارتداء الملابس الوطنية الواسعة المتعددة، وعلى رؤوسهم العمائم الكبيرة المحنكة. واللون الغالب عليهم هو السواد حتى الذين يكون لونهم السمرة في الأصل أو البياض كالطوارق والعرب قد اكتسبوا شيئاً من السواد أو السمرة الشديدة بسبب الجو أو بسبب الإختلاط. والذين لونهم البياض كالعرب الخلص والطوارق الخلص فإنهم قليلو العدد في رأي العين.

وبعد الصلاة ألقيت كلمة من مكبر الصوت الذي تكلم منه الخطيب وكان رجل يمسك به غير الخطيب فأراد أن يمسك به أمامي فامتنعت من ذلك وأمسكته بيدي، وقد تضمنت الكلمة حمد الله وشكره على أن يسر لنا هذا الإجتماع في هذا المسجد الجامع التاريخي الكبير ثم بنيت لهم أهداف رابطة العالم الإسلامي في نشر الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم.

ووسائلها إلى ذلك، وقلت: إن من الوسائل المهمة إلى ذلك التعاون مع الجمعيات والمنظمات الإسلامية ومنها الجمعية الإسلامية في هذه البلاد.

وأبلغتهم تحيات المسؤولين في الرابطة التي تضم في مجلسها التأسيسي ممثلين لأكثر المسلمين ويمثل النيجر فيها أخونا الحاضر معنا الأخ السفير عمر جالو.

وكان يترجم الكلمة الأخ الأستاذ (البيهقي) الأمين العام للجمعية الإسلامية إلى لغة الهوسا التي هي اللغة الرئيسية في المدينة كما قدمت. على أن اللغة العربية ولغة الطوارق موجودتان في المدينة ولكنهما أقل شيوعاً من اللغة الهوساوية وذلك بسبب كثرة عدد (الحوس) الهوسا في المدينة وإن لم يكونوا بهذه الكثرة خارجها.

ولقد قال لي الأخ الحاج يوسف محمد وكان يتكلم العربية: ان الناس يتعلمون العربية من الشارع لأن العرب موجودون في المدينة وفيما حولها.

ثم انصرفنا من المسجد وقد انصرف الناس بسرعة بعد صلاة الجمعة فهم لم يتعودوا على أداء شيء من النوافل في الجامع بعد الصلاة في أكثر هذه البلاد الغربية التي تتمذهب بمذهب الإمام مالك.

ومع ذلك كان لا يزال المسجد فيه أعداد كبيرة، والزحام على أشده عند بابه، ولقد لاحظت كثرة عدد الشحاذين عند باب المسجد الخارجي حتى إن بعضهم ألحوا علينا بالسؤال بسبب معرفتهم من ملابسنا أننا غرباء، وإن كان الإخوة المرافقون يمنعونهم من ذلك وقد لاحظت أن أكثر هؤلاء الشحاذين هم من اللون نفسه الذي هو لون الهوسا.

وعند باب المسجد كانوا قد فتحوا أبواب السيارة غير أنني تريثت قليلاً أبحث عن زاوية التقط منها صورة جيدة لمنارة الجامع الغريبة فرأيت شخصاً أبيض اللون من العرب أو الطوارق حتماً وهو يبول تحت جدار المسجد والناس يرونه لا يهتم بذلك.

ولا شك في أنه صحراوي الأصل، إذْ سكان الصحراء هم الـذين تعودوا على أن يلجئوا إلى الأرض الفضاء إذا دعاهم هذا الداعي لذلك.

والتقطت صورة للمنارة وصوراً أخرى لبعض المسؤولين أمام المنارة.

مسجد حارة آمرك:

طلبت أن أرى بعض المساجد الصغيـرة قبل الخـروج إلى المطار والعودة إلى (نيامي) فوقفنا عند مسجد على الشارع الأزفلتي الرئيسي في المدينة، وهو الذي يأتي من نيامي، ويذهب إلى الجزائر، ومع ذلك يسمى طريق زندر لأنه ذاهب من أغاديس إلى زندر أولاً.

ولم يكن المسجد مفتوحاً لذلـك اكتفينا بـالقاء نـظرة خارجيـة عليه وصورت منارته إو صومعته المربعة غير العـالية، وهي على خـلاف منارة المسجد الجامع التي هي على الطراز السوداني، وأما هذه فإنها على الطراز المغربي المنحدر من الطراز الأندلسي.

مسجد عثمان دان فودي:

ومن الذي لا يعرف الشيخ عثمان دان فودي الذي كان مجرد طالب علم وصل به طموحه العلمي وحماسه الديني إلى تأسيس حكم إسلامي خالص في منطقة واسعة من السـودان الغربي وبخـاصة فيمـا يعرف الآن بشمال نيجيريا؟ وكانت عـاصمة حكمـه ولا تزل مقـر خلفائـه هي مدينـة (صوكوتو) هناك. وقد زرتها وذكرت شأناً من شأنها في كتاب «قصة سفر في نيجيريا».

وسمي هذا المسجد بمسجد عثمان دان فودي لأنه تعلم فيه، وفيه واقعة مهمة في تاريخ تدوين حياته إذ عزم على أداء فريضة الحـج وبدأ السفر إلى ذلك بالفعل من مقره في شمال نيجيريا غير أنه عندما وصل إلى هذا المسجد عاد وقال شعراً في عودته بسبب مرضه.

ولقد ذكرني الحديث عن عودته عن عزمه على الحج في هذه المدينة

لقاء كان لي بحفيده أمير المؤمنين السلطان أبو بكر الثالث بن عثمان بن معاذ بن محمد بيللو في مقره في مدينة (صوكوتو) وكان وزير الخليفة الدكتور (محمد جنيد) حاضراً المقابلة، وبعد انتهائها أخبره الأخ (محمد ساغو) بأنني مؤلف أسجل ما أشاهده فقال لي الدكتور محمد جنيد إذا كتبت لا تكتب كما ذكره فلان وفلان مما هو كذب بكذب فسألته عن ذلك الكذب حتى أتجنبه، فقال إن بعض الناس ذكروا أن الشيخ عثمان دان فودي قد حج وتأثر هناك بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ولذلك نادى بتنقية العقيدة الإسلامية من الشوائب وهذا غير صحيح فهو لم يحج، وبالتالي لم يقابل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولم يتأثر بدعوته.

والوقائع تؤكد ما قاله الدكتور محمد جنيد لأن الشيخ عثمان دان فودي رحمه الله كان ينادي بتنقية العقيدة من الشوائب لأن الناس في زمانه وخاصة أهل شمال نيجيريا وأهل نيجيريا عامة ممن أسلموا حديثاً كان لا يزال يوجد في إسلامهم بقايا من عقائد الديانات الوثنية أو من العادات القبلية المنافية للدين.

وأما العقيدة السلفية للشيخ عثمان دان فودي فإنه كان لا يرى بأساً من الإنضمام إلى إحدى الطرق الصوفية ومن ذلك أنه هو نفسه منتسب إلى الطريقة القادرية. ولو كان متبعاً للشيخ محمد بن عبد الوهاب أو متأثراً بدعوته لما فعل ذلك.

مغادرة أغاديس:

ودع الإخوة من أهل أغاديس في المطار وداعاً حاراً جزاهم الله خيراً. وكانت التلفزة أيضاً تشارك بمصوريها في ذلك، وكان الوداع كالإستقبال من فريقين الأول وهو الأكثر صفوف من كبار القوم والثاني وهو الأقل عدد من كبار المسؤولين كانوا عند باب الطائرة.

وغادرت الطائرة المطار بركابها الستة الذين لم يزدادوا ولم ينقصوا، وذلك في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق من بعد الظهر.

وقد نهض الطيار بطائرته من المطار فحام مباشرة فوق المدينة وهو يصغي جناح طائرته كما تفعل طائرات الإستعراض تحية لأهل المدينة الذين لم يتعودوا على رؤية الطائرات الحربية، حتى أشفقنا من انكفاء الطائرة، وانتهزت الفرصة فالتقطت في هذه الحالة عدداً من الصور لمدينة أغاديس من الجو حيث لم يكن جناح الطائرة يحول بيني وبين الأرض لكون الجناح مرفوعاً إلى أعلى - إلا أن الكاميرا خانتني فأفسدت الصور كلها.

وكانت رحلة العودة مملة لأننا نعرف أنها ستستغرق أكثر قليلاً من ثلاث ساعات في مدة حافلة بضجة محركات الطائرة بدون أن يكون فيها جديد.

وكانت السماء صافية الأديم خالية من الغيوم خلو رمال هذه الصحراء الكبرى من الأشجار الخضر.

ولدى الوصول إلى العاصمة حامت هذه الطائرة الحربية الصغيرة فوق العاصمة أيضاً، وقد بدا من فوق العاصمة في هذه المرة نهر النيل أو نهر النيجر ذا مظهر خلاب في أعيننا بعد العودة من الصحراء الكبيرة القتيرة، وحتى البساتين الصغيرة والخضرة الضيقة على ضفافه صارت بمثابة أرض السواد، بل بمثابة ضفاف النيل: نيل مصر، وكيف لا يكون الأمر كذلك وما المانع من أن ينتفع النيجريون من نيلهم هذا العظيم مثلما انتفع المصريون من نيلهم؟

أليست النيجر أقل صحراوية من مصر؟ إن ذلك صحيح فالمنطقة التي يجري فيها نهر السودان هذا هي أكثر أشجاراً وأوفر مراعي من الصحراء التي يجري فيها نيل مصر لولا العمارة والزراعة التي استمدوها من النيل.

وكان من الملفت للنظر من ظهر هذه الطائرة الصغيرة غير السريعة حقول الأرز القليلة وأشجار الطلح خارج المدينة، وبيوت الطين المطلية بالجص التي توجد بينها بيوت اسمنتية قليلة. وأكواخ الرعاة أو القرويين المبنية من القش التي تبدو أشكالها كالمحاقين والأنس بمناظر الطائرات العديدة الموجودة في المطار.

وكان الوصول إلى مطار نيامي بعد أن انقضت ثلاث ساعات وخمس دقائق على بدء الطيران من أغاديس.

مأدبة السفارة السعودية:

أقامت السفارة السعودية مشكورة مأدبة عشاء كبيرة دعت إليها سفراء الدول الإسلامية أو رؤساء بعثاتها السياسية في النيجر ومنهم سفراء الجزائر والمغرب ومصر ورؤساء بعثات تونس ومالي ونيجيريا وباكستان.

وكان مقر المأدبة حديقة بيت السفير الواسعة المنسقة، التي تزدان بالأشجار والزهور.

وكان موعد المأدبة الثامنة مساء إلا أنها امتدت بعد العشاء إلى الحادية عشرة إذ تحلق السفراء والعلماء حولنا يسألون عن أحوال المسلمين، ويستفسرون عن شؤونهم في بلادهم وذلك من واقع ما عرفوه من كوني زرت مهاجر المسلمين في شرق الأرض وغربها.

ومن ذلك أن استفسر السفير الجزائري عن حالة المسلمين في نيو كلدونيا، الذين هم من أصل جزائري نفى الفرنسيون أباءهم إلى تلك الجزيرة النائية في جنوب المحيط الهادىء منذ ما يقرب من مائة وثلاثين سنة عندما قام الجزائريون في ذلك الحين بثورة عارمة على الإستعمار الفرنسي في بلادهم.

وكان نجم الحفلة وعريفها النشط الداعي الأخ غازي مجدلي القائم بالأعمال في السفارة السعودية وأعلى المسؤولين فيها رتبة.

أما المأدبة فكانت حافلة بما لذ وطاب مما هو موجود في هذه البلاد ومما هو مجلوب إليها مثل الروبيان وهو المسمى عند العرب القدماء الإربيان وممن ذكره بهذا الإسم الجاحظ واسمه عند المصريين الجمبري وقد جلبوه من ساحل العاج، إلا أن الذي ميز المأدبة وأعطاها الطابع المحلي وجود خروفين كاملين مشويين قد نظم كل واحد منهما في قضيب قوي من الحديد وثبت معترضاً على وتدين قويين من الحديد دقا في

الأرض، يأتي إلى الخروف منهما من يريد أن يأكل منه، فيتناول من لحمه بيده ينزعه نزعاً وينتزعه بأظفاره انتزاعاً.

وهذه طريقة سودانية غريبة من المآدب وأول ما رأيتها كان في مدينة داكار عاصمة السنغال وفي مأدبة أقامها رئيس حكومة السنغال آنذاك عبده جوف وهو الرئيس الحالي لأعضاء الوفود التي حضرت اجتماعات اتحاد الجمعيات الإسلامية، وكنت الشخص الوحيد الذي حضر من المملكة إلى تلك الإجتماعات وذكرت ذلك في كتاب «صلة الحديث عن إفريقية» المطبوع.

يوم السبت ٥/٥/١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م:

إلى بلدة ساي:

لم أستطع في المرة الماضية زيارة هذه البلدة ومشاهدة مباني الجامعة الإسلامية هناك - وهذه المرة كان رئيس البلاد الجنرال الحاج حسين كونتشي هو الذي وضع زيارتها في برنامج زيارتي للنيجر.

بدأ الركب بالإنطلاق إلى (ساي) في الساعة الثامنة من الصباح على سيارات الجيب التي ذهبنا عليها إلى بلدة (نافدو) قبل يومين. ومع ذلك فإن الطريق إليها غير مزفلت. ولذلك لا تقوى عليه السيارات الصغيرة المعتادة، وكان يصحبنا الإخوة أعضاء الجمعية الإسلامية على رأسهم رئيسها إلى جانب المرافقين المعتادين، وعلى رأسهم الأخ السفير (عمر جالو). ومعنا أيضاً فريق المصورين من التلفزة الوطنية ومندوب من الإذاعة الوطنية يحسن العربية كأحد أبنائها.

كان أول ما سمعته من الأخ الشيخ عمر جالو هو ما أردت أن أقوله وسبقني إليه وهو الأسف الشديد على هذه الأراضي الزراعية غير البعيدة من ضفاف نهر النيل (النيجر) ولكنها قفراء مغبرة تشكو العطش وهي بجوار النهر فكأنها العيس التي ذكرها الشاعر:

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الشفاء، وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ... والماء فوق ظهورها محمول

وكرر الشيخ عمر قوله: يا عجباً من الشكوى من المجاعة في النيجر، والنهر الكبير يتدفق في أرضها مسافة أربعمائة وخمسين كيلومتراً وأرضها خصبة لا تحتاج إلا إلى العمل الجاد من الشعب الذي يبدو ـ على حد قوله ـ أنه يؤثر الراحة على العمل الشاق في الزراعة. فأضفت إلى ذلك تذكيره بأنه شعب في الأصل من الرعاة، أو أن أكثرية سكانه كذلك ويحتاج تحويله إلى شعب زراعي إلى وقت وتوعية ثم مران وتدريب.

ومع آن ضفاف النيل التي كان يسايرها النهر، ووصفت بعضها في المرة السالفة هي يابسة تشكو الظمأ فإن المنطقة نفسها هي منطقة مراعٍ صحراوية وليست خالية من الأشجار أو حتى من أعشاب الرعي اليابسة لأنه كان قد جادها غيث في الموسم الماضي ولكن الشمس والصيف قد أحالت ربيعه إلى هشيم.



راعي بقر فلاني مع أبقاره

فكنت ترى الأبقار والأغنام وحتى حمير الرعاة تراها بكثرة لأنها تستعمل لذلك ولغيره من الركوب والحمل بسبب عدم وجود السيارات أو النقل بسبب عدم وجود المراكب في هذه الصحراء، ما عدا الإبل التي لا يقوى عليها رعاة البقر ولا القرويون الفقراء، وإنما يقوى عليها القادرون، ومن ذلك ركب مؤلف من عشرة راكبين على رواحلهم قد اعتلوا أكوارها وهم يجدون في السير كأنهم البدو في صحراء العرب لولا وجود خيط في وجوههم يمر بعيونهم لم يغطه اللثام ويوضح أنهم من أهل السواد والمراد بذلك ليس سواد الزرع، وإنما السواد الذي جلبه الجو.

ومن الأشياء الملفتة للنظر وجود طيور القماري وهو الحمام البري الجيد المنظر كان يقع على الطريق ربما ليلتقط الحب الذي قد يوجد من أرواث الدواب التي تقطع هذا الطريق مع أنه طريق ترابي ولكنه ممهد، ولا تبتعد عن طريق السيارات إلا إذا قاربت أن تصلها وهي موجود بكثرة هنا.

وبئر بعيدة يستقي منها الرعاة والقرويون وهم يعانون المشقة في إخراج الماء من البئر رغم أن النهر عنهم في مرمى البصر ولا يكاد يبعد مرمى حجر.

وقد أخبرونا أن أكثر المقيمين هنا هم من الفلانيين - بالنون - كما يعرفون هنا ونحن نعرفهم في بلادنا بالفلاتة أو الفلاتيين. وهؤلاء الفلانيون هم من رعاة البقر المشهورون في السودان الغربي كله.

اما أصلهم فإنه مختلف فيه ومرافقنا السفير عمر جالو هو منهم وحسبك به شاهداً على ما عرف عنهم من ذكاء وحصافة.

قرية جاكند:

مر الطريق ولا يزال كما قلت ببلاد الفولاني وهم رعاة مواشٍ وخاصة الأبقار ولكن لديهم أيضاً ماشية من الأغنام، والملفت للنظر أن ماشيتهم كبيرة الأحجام مثلاً البقر الذي عندهم كالموجود في شمال نيجيريا كبير الحجم لولا أن بعضه هنا هزيل بسبب الجدب الذي حل بهذه المنطقة.

والغنم من الضأن كبير جداً يشبه السواكن التي تأتينا من السودان الشرقي وسميناها بهذا الإسم لأنها تصدر من ميناء سواكن من السودان الشرقي إلا أن هذه الأغنام السودانية الغربية تفوق في حجمها الأغنام السودانية الشرقية.

وهذه القرية الفلانية المسماة (جاكند) شاهدة على ذلك وتشهد أيضاً على أن القوم يصبحون من الزراع إذا جاد بلادهم المطر، ولكنهم لا يسعون إلى معالجة النقص في الحياة بوسائل أخرى كحفر القنوات، وحتى جذب الماء من النهر غير البعيد.

ولا توجد الآن مزروعات في القرية تدل على نوع الزرع الذي يمارسونه، بل إنه لا يكاد يوجد فيها عود أخضر مزروع، وإنما هي عامرة بأشجار الطلح الكبيرة، وأشجار كثيرة من أشجار الدوم، وهو هنا نامٍ بكثرة ملفتة للنظر.

وشاهدنا الرعاة هنا من الفلانيين ورأيت أكثر من واحد منهم يحمل فأسه على كتفه ولا أدري أذلك من أجل الإحتطاب فقط أو هي عادة من أجل ذلك ومن أجل غيره مثل حمل الناس الفأس لما يحمل له السلاح مع أن البلاد الآن آمنة مطمئنة تحت إدارة الرئيس الحازم حسين كونتشي والإنسان آمن من اعتداء أخيه الإنسان عليه، وإنما المشكلة في السباع وخشاش الأرض كالحيات.

وبعض الفلانيين الرعاة يضعون على رؤوسهم قبعات من القش وخوص الدوم كالتي يلبسها الرعاة وبخاصة من النساء في جنوب المملكة، وهي مفيدة في الوقاية من الشمس الحارة، ولذلك يكثر لبسها في البلاد الإستوائية والقريبة من الإستوائية.

قرية تلاوي:

ومر الطريق بقرية (تلاوي) وهي للفلانيين أيضاً، وكان من الأشياء التي تجلب الإنتباه فيها نساء قد أقبلن عليها يحملن على رؤوسهن الماء في أوانٍ شبيهة بما نسميه (البوادي) جمع بادية التي يوضع فيها الطعام وهي

أشبه ما تكون بالصحن المقعر وغالباً ما يكون الماء الذي يحمل في هذه الأوعية قليلاً، لأنها ليست بذات عمق مناسب.

أما القادرون أو المحتاجون لماء أكثر، فقد رأيناهم مجتمعين على بئر وهم يحملون الماء منها على الحمير.

وأرضهم من الرمل المنبسط مما نسميه في بـلادنا (الجَـرَدَ)، وهذه تنبت الأشجار الصحراوية الصغيرة فضلاً عن خصبها بـالمرعى إذا جادها الغيث.

والمساكن في هذه القرية مثل سابقتها أكثرها من القصب أو القش ذات أشكال مخروطة مستديرة.

وهذا يشد المرء إلى الماضي غير أن هناك شيئاً يراه وربما لا يغيب عن بصره من الطريق يجذبه من ذلك الماضي إلى العصر الحاضر ألا وهو أبراج الكهرباء ذات الضغط القوي قادمة من (نيامي) العاصمة وذاهبة إلى بلدة (ساي) التي تتعداها من أجل تغذية الجامعة الإسلامية بالكهرباء.

وأنا أفكر في ماضي هذه البلاد وحاضرها فأجد أن إمكانات التقدم الحضاري عندهم كبيرة جداً، بل تفوق إمكانات دول كثيرة ظاهر حالهـا عكس ذلك كبعض الدول المطيرة في وسط إفريقية، لأن البلاد واسعة وهي وإن كانت صحارى فإن احتمال وجود معادن في جوفها كبير بل إن بعض المعادن قد ظهرت فيها بالفعل واستغلت فانتفعت منها البلاد وهي الأورانيوم المشع.

وإمكانات البلاد الزراعية كبيرة جداً، بل عظيمة في المستقبل، لأن هذا النيل العظيم ـ ولن أسميه إلا بنهر النيل كما كان أسلافنا العرب يسمونه وإن رغمت أقلام الغربيين ومن تغرب من قومنا معهم ـ ويمكن إذا توفرت بعض الإمكـانات غيـر الكبيرة شق قنـوات من النهر ولـو محدودة العـدد والإمتداد في أول الأمر فهذه سوف تغير ملامح المنطقـة وتأتي بـالخصب والزرع.

أما إذا كانت الإمكانات أوفر فإنه يمكن إنشاء سد عظيم على هذا النهر العظيم وسوف يترتب على ذلك إرواء مساحات شاسعة من البلاد وتوليد طاقة كهربائية هائلة القوة. تزيد عن حاجة البلاد، وقد ترسلها إلى بلد مجاور محتاج إليها مثل تشاد المجاورة على سبيل المثال.

في الجامعة الإسلامية:

وجدنا لوحة كبيرة تحمل اسماً حبيباً إلى النفس وبخاصة إلى نفسي أنا هو اسم (الجامعة الإسلامية) وهو يثير في نفسي ذكريات عزيزة في مدينة الرسول ﷺ فقد سلخت من عمري أربعة عشر عاماً في خدمة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكنت أول موظف فيها.

وقفنا عند هذه اللافتة التي وضعت على مفرق ترابي من الطريق الترابية الرئيسية لتدل على الإتجاه للجامعة الإسلامية بدلاً من الإستمرار في السير إلى بلدة ساي المجاورة فالجامعة الإسلامية تعتبر في ضاحية من البلدة خارجة عن وسطها.

ولقد بدأ مصوروا التلفزة عملهم على تصوير الرحلة من هذه الوقفة التأملية وتبعد مباني الجامعة عن هذه اللوحة الموضوعة على الطريق الرئيسية كما قلت أقل من كيلو متر واحد.

وجدنا في الإستقبال على مفرق هذه الطرق نائب محافظ بلدة (ساي) الأخ يوسف وادن وهو من الطوارق. ومعه ضابط من الشرطة كبير الرتبة.

أما عند الجامعة الإسلامية نفسها فقد وجدنا أحد المشرفين النيجريين ومندوبا من الشركة الفرنسية التي تتولى تنفيذ مباني الجامعة.

فأخذونا في جولة على هذه المباني ابتدأت بمبنى الإدارة العامة وكلية اللغة العربية والدراسة الإسلامية التي ستبدأ بها الجامعة. إلى جانب مساكن المدرسين والمرافق العامة كالكهرباء والماء.

ومن الغريب أن الجامعة ستتغذى من مياه آبار حفروها لهذه الغاية على حين أن (نيل السودان) لا يبعد عنها إلا بثلاثة كيلو مترات ولكن

الأرض ما بينهما ليست مستوية لذلك ذكروا أنه يصعب مد الماء من النهر إليها.

وذكروا أن ما تم تنفيذه من مباني الجامعة لا يتجاوز العشر أي ١٠٪ كما يقول عموم الكتاب. لأن المشروع كبير، ولكن التمويل هو العائق في الوقت الحاضر رغم كون هذه الجامعة الإسلامية أنشئت بموجب قرار من دول منظمة المؤتمر الإسلامي، ويفترض أن الدول الإسلامية هي التي ستموله، وعلى ذلك لن يشق على قرابة أربعين دولة أن تمول بناء جامعة كبيرة.

غير أن الواقع أن بعض هذه الدول الإسلامية لم تقم بأداء الإلتزامات المالية التي عليها بموجب عضويتها في منظمة المؤتمر الإسلامي نفسها. وإنما يأتي التمويل الحقيقي للمنظمة بالدرجة الأولى من المملكة العربية السعودية فهي التي لا تكتفي بسداد حصتها من نفقات المنظمة وإنما تقدم لها مساعدات كثيرة إضافية.

وتأتي بعض الدول الإسلامية بعد المملكة في دفع حصتها في نفقات المنظمة. وقد قدمت الحكومة النيجرية الأرض للجامعة كما قدمت الكهرباء وأنهت العمل في التصميمات اللازمة لزفلتة الطريق ما بين نيامي وساي.

والملاحظ أن موقع الجامعة هو مثالي من حيث كونه في جو خلوي بري وسط مساحات من الأرض مستوية ومتسعة غاية الإتساع.

حديث للإذاعة والتلفزة:

كان المسؤولون في التلفزة والإذاعة قد طلبوا تحديد وقت لإجراء حديث متلفز يذاع عن انطباعي عن زيارتي لجمهورية النيجر، وقد رأيت ألا يكون من أول الرحلة لأن المفروض أن انطباعات الزائر تكون بعد إنتهاء الزيارة أو قرب انتهائها فتحدد لذلك مساء اليوم إلا أن القوم انتهزوا فرصة وجودنا هنا وكانوا جاؤوا معنا من أجل متابعة الرحلة للجامعة فأجروا حديثاً متلفزاً بين مباني الجامعة وكنت فيها واقفاً أتفقد المباني.

وبعد الحديث المتلفز قمنا بباقي الجولة على المنشآت التابعة للجامعة مثل المطابخ، والحديقة والمطعم الذي أجزم بأنه لا يوجد له مثيل في هذه المنطقة، لأنه على أحدث أطرزة المطاعم سواء من حيث الإعداد والتجهيز ومن جودة المواد التي أقيم منها حتى غسل الأطباق كلها يتم فيه آلياً ـ ثم مخازن الأغذية الملحقة بالمطعم على طراز حديث يحفظ الأطعمة مما لا يظن أيضاً أنه موجود في المنطقة، بل في أكثر أنحاء إفريقية، وذكروا أن هذا المطعم مصمم لكي يفي بحاجة ألف آكلٍ في آن واحد.

وفي النهاية ودعنا القوم المشرفين على المشروع وشكرت ممثل الشركة المنفذة وهو فرنسي على هذا العمل الذي يتسم بالإتقان مع المحافظة على طابع الجمال وقلت له: نرجو أن تعلموا أن اخلاص العمل في هذه الجامعة الإسلامية يعتبر بادرة طيبة تجاه المسلمين كلهم لأن المشروع في الحقيقة هو مشروع منظمة المؤتمر الإسلامي التي تمثل حكومات البلدان الإسلامية، وهو في الوقت نفسه مشروع ثقافي قد يدخل في تقوية العلاقات الثقافية ما بين فرنسا والعالم الإسلامي فانحنى شاكراً موافقاً على ما قلته.

بلدة ساي:

كان الذهاب بعد رؤية ما تم من مباني الجامعة الإسلامية التي قال فيها الرئيس حسين كونتشي: إنه يأمل أن تكون جامعة لغرب إفريقية كله إلى زيارة بلدة ساي نفسها وهي بلدة قديمة مشهورة فذهبنا إليها مع طريق ترابي ممهد إلا أنه قد بعد عهده بالتمهيد لذلك صار يؤذي السيارة وراكبيها، ولا نقول هذا من أجل أن نلوم أهلها فنحن في المملكة العربية السعودية كانت طرق القرى عندنا بمثل هذه المثابة وأحياناً أشق من ذلك على السيارة وراكبيها لأنها قد تكون طرقاً صخرية وقد تكون طرقاً رملية.

وقد مر الطريق فوق جسر على قناة صغيرة مجلوبة من النهر ومقامة من الإسمنت تمنيت أن يزيد عدد مثيلاتها وأن تعم بلاد النيجر القريبة من النهر كلها. لأنني رأيت الخضرة بسببها تكحل العيون في ساحة معينة كما

كانت أشجار البلدة ناضرة يانعة ـ وذلك لأن طرف المدينة قريب من النهر.

ومررنا بسوق شعبية ليس فيها أحد قالوا: إنها سوق الجمعة وإنها تكون خالية في مثل هذا اليوم.

ثم كان الوقوف تحت ظل شجرة في ميدان رئيسي من البلدة لا تحيط به الأبنية إحاطة كاملة كما يكون في ميادين المدن وإنما هو كالأماكن المتسعة في القرى فيه أبنية من بعض الجوانب بينها فرج كثيرة ولكنه يتميز بكثرة أشجار الظل وضخامة تلك الأشجار.

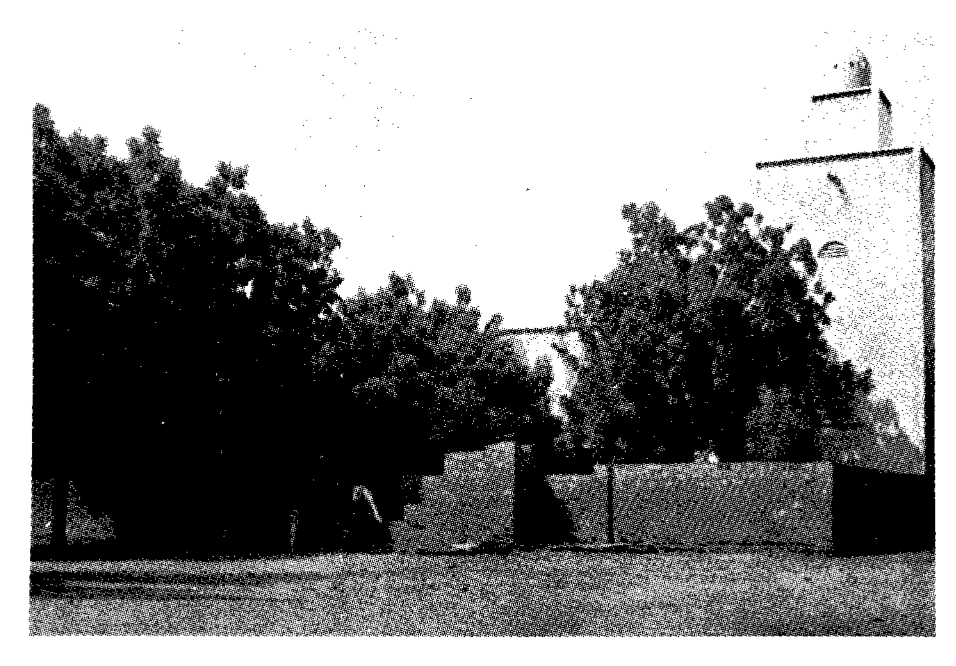
وكان في الإستقبال جمع من الإخوة تحت ظل هذه الشجرة الوارف منهم شيخ وقور قالوا: إنه رئيس البلدة وإنه حفيد لمؤسسها (ساي عبد السلام الحسن). من قبيلة الفلاني ـ بالنون ـ ومدير المدرسة العربية في البلدة (أبو بكر سعيد) وهو يعرف العربية جيداً. وممثل الجمعية الإسلامية هنا (أبو بكر عثمان) يعرف العربية بعض المعرفة، ويذكر أن رئيس الجمعية الإسلامية ـ في النيجر الشيخ (عمر إسماعيل) هو أحد مرافقينا في هذه الرحلة جزاه الله خيراً.

كما كان بين المستقبلين القاضي (أبو بكر خضر) وهو إمام المسجد الجامع يتكلم العربية والأستاذ (أبو القاسم سوري). مدرس العربيـة في المدرسة الحكومية في بلدة (ساي).

وبعد كلمات الترحيب وكلمات مني ومن الشيخ عمر جالو للتعريف ذهبنا مع كبار القوم لرؤية المسجد الجامع وكنت على وضوء فصليت تحية المسجد فيه وهم ينتظرون.

وبناء المسجد قوي بالإسمنت المسلح وهو واسع ذكروا أنه كان مبنياً بالطين ـ غير أنه جدد بناؤه بالمسلح في عام ١٩٦٢ م.

ومن أجمل ما فيه أقواس عربية الملامح فوق الإسطوانات. وهو مفروش بفراش جيد، وفي فنائه المكشوف أشجار عدة من أشجار (النيم) من أجل الظل وهو ظل نافع بل ضروري للمصلين في هذا الفناء عندما



مسجد ساي -

يضيق المسجد المسقوف بهم أيام الجمع فهذا معمول به في الجامع القديم الكبير في العاصمة (نيامي) كما أنه معمول به في جوامع عديدة في شمال نيجيريا.

وكان مسك الختام السلام مرة أخرى على هؤلاء الإخوة الكرام والتقاط صورة للشجرة الضخمة التي كان ظلها يتسع للضيوف والمستقبلين مع المتفرجين المتطفلين وتسمى (قاو) وربما كان لاسمها هذا علاقة ببلدة (قاو) التي كانت عاصمة لملوك السنغي وهم الأسكيات.

وكانت العودة في الحادية عشرة والنصف إلى الفندق.

الإجتماع الختامي مع الجمعية الإسلامية:

وبعد العصر عقدنا اجتماعاً ختامياً في الفندق حضره رئيس الجمعية

وكبار الأعضاء فيها كما حضره رفيقي في السفر السفير الدكوري الذي كان حاضراً كل الإجتماعات والأخ السفير عمر جالو، وقد استمر هذا الإجتماع حوالي ثلاث ساعات سلمتهم خلالها أربعة وخمسين ألفاً وخمسمائة دولار وهو المبلغ الذي قدمته باسم الرابطة للعناية بالجامع القديم في نيامي كما اتفقنا فيها على القضايا التي بحثت معهم من أول وصولنا إلى نيامي واتخذنا محضراً مشتركاً بذلك كله.

يوم الأحد ١٤٠٥/٥/٦ هـ - ١٩٨٥/١/٢٧ م:

وداعاً يا نيامي:

كان موعد سفرنا في السادسة إلا ربعاً من هذا الصباح وهذا معناه أن نصلي الفجر في المطار أو في الطائرة، وقد غادرنا الفندق في الخامسة وكان من المودعين الأخ الكريم غازي مجدلي القائم بأعمال السفارة السعودية والشيخ عمر جالو وقد جاؤوا كلهم قبل الفجر. وكذلك حضر مندوب المراسم في وزارة الخارجية وبعض الإخوة من الجمعية الإسلامية.

وأردنا أن ندفع للفندق قيمة المكالمات الهاتفية الدولية التي سارت الدول على عدم تحملها عن الضيف إلا أنهم أخبرونا أن رئيس الجمهورية قد أمرهم بأن لا ندفع شيئاً من ذلك أو غيره، بل تتحمله الحكومة كله فشكرنا لهم ذلك وقدرناه.

ومن الأشياء التافهة في هذه الرحة أن الأخ الدكتور كمال الوسيني مدير مركز الفيصل في نيامي كان قد أهداني (تمساحاً) محنطاً وهو هدية نفيسة لطيفة ولكن الذي همني هو كيفية نقله معي وأنا ذاهب إلى ساحل العاج ومن هناك إلى داكار ثم المغرب لزيارة بعض المدن الجنوبية فيه - وقد تكفل الأخ غازي مجدلي بإزالة هذا الهم بأن أخذه ووعد بإرساله إليّ في المملكة مع شخص يعرف قيمته فيحافظ عليه.

وسافرنا مع طائرة شركة الخطوط الجوية الإفريقية (اير افريك) إلى مدينة (أبيجان) عاصمة ساحل العاج.

وللحديث عن ساحل العاج مكان في كتاب عنوانه (بقية الحديث عن إفريقية) وهو كتاب مطبوع، والله أعلم.

كتب أخرى من الرحلات للمؤلف

أولاً ـ كتب تحت الطبع:

١ ـ في ربوع السودان الغربي، أو المنظور والمأثور، عن بلاد التكرور.
٢ ـ رحلات في أمريكا الجنوبية.
٣ ـ رحلة في شرق الهند.
٤ ـ زيارة للمسلمين في الإتحاد السوفيتي: بلاد الروس والبشقرزد.
٥ ـ على أرض القهوة البرازيلية.
٦ ـ نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض.
٧ ـ بين غينيا بيساو، وغينيا كونكري.
٨ ـ من انقولا إلى جزر الرأس الأخضر.
٩ ـ في جنوب الصين.
١٠ ـ إلى أقصى الجنوب الأفريقي.
١١ ـ يوميات آسيا الوسطى.
١٢ ـ مشاهدات في لاوس وكمبوديا.
١٣ ـ حديث قازاقستان.
١٤ ـ حديث قرغيزستان.

ثانياً ـ كتب مخطوطة:

١٥ ـ قصة سفر في نيجيريا.
١٦ ـ وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، جزءان.
١٧ ـ رحلات في شمال الهند الشرقي.
١٨ ـ وراء العمل الإسلامي في القارة الإسترالية.
١٩ ـ في بلاد الهند والسند: باكستان.
٢٠ ـ مشاهدات في تايلند.
٢١ ـ وراءالمشرقين :رحلة حول العالم وحديث في شئون المسلمين.
٢٢ ـ في إندونيسيا: أكبر بلاد المسلمين.

٢٣ - رحلات في بلاد اللايو.
٢٤ - نظرة إلى الفلبين بين زيارتين رسمية وخاصة.
٢٥ - الإشراف، على أطراف من المغرب العربي.
٢٦ - رحلات في القارة الأوروبية.
٢٧ - ذكريات من أركان العالم.
٢٨ - الحل والرحيل، في بلاد البرازيل.
٢٩ - في شرق البرازيل.
٣٠ - رحلات فنزويلية.
٣١ - خلف الستار العقيدي.
٣٢ - رحلات في شمال الهند.
٣٣ - رحلات في وسط الهند.
٣٤ - رحلات في جنوب الهند.
٣٥ - رحلات في غرب الهند.
٣٦ - في الشمال الشرقي من البرازيل.
٣٧ - تائه في تاهيتي.
٣٨ - ذكريات المؤتمرات.
٣٩ - جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط.
٤٠ - مؤتمرات إسلامية حضرتها.
٤١ - زيارة رسمية لتايوان.
٤٣ - في جنوب البرازيل.
٤٤ - العودة إلى الصين.
٤٥ - في وسط الصين.
٤٦ - في أدغال إندونيسيا.
٤٧ - أيام، في فيتنام.
٤٨ - العودة إلى ما وراء النهر.
٤٩ - على سقف العالم.
٥٠ - في شمال شرق آسيا.
٥١ - فوق سقف الصين.
٥٢ - إلى جنوب الشمال: بلاد السويد.
٥٣ - إلى شمال الشمال: النرويج وفنلندا.
٥٤ - إطلالة على إستراليا.
٥٥ - في جنوب تايلند (فطاني).

٥٦ - «رحلتنا المسافات الطويلة».
٥٧ - «جولة في جزائر جنوب المحيط الأطلسي».
٥٨ - «المستفاد من السفر إلى تشاد».
٥٩ - «بلاد القرم».
٦٠ - «في بلاد الشركس».
٦١ - «العودة إلى داغستان».

الفهرس